أسطورة البنايين

أسطورة البنايين

إيهاب قاسم

الطبعة الأولى، 2022
دار ميريت
32 ش صبرى أبو علم، القاهرة
www.darmerit.org (under construction)
merit56@hotmail.com
darmerit98@gmail.com

لوحة الغلاف إهداء من الفنان: **حلمي التوني**

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: 2022 / 7168

الترقيم الدولي : 7 - 924 -351 -977-978

إيهاب قاسم

أسطورة البنايين

رواية

ميريت

2022

فهرس

الفصل الأول

الست 9

الشرقيين 15

أوزير 23

ملوك الرمال 33

تحوت 43

شاران 52

عبيكه 59

بحري 71

الفصل الثاني

الرحلة 77

الكهف 92

الغروب 117

الفصل الثالث

البنايين 139

المتاهة 141

النبوءات 149

كوابيس الغضب 160

النهاية 177

البداية 189

الفصل الأول

الست

تصحو مع ضياء الفجر المنساب من خلف الستائر الكتانية الرقيقة، تتنفس بعمق فينساب نسيم البحر برائحته المنعشة المميزة إلى رئتيها، تفتح عينيها، يزول خدر النوم عنها فتستجمع طاقتها ليوم جديد.

تجلس على حافة السرير بجسدها القوي تنظر إلى بطنها المنتفخ وتبتسم؛ لم يبقَ على ميعاد ولادتها إلا أيام، أيام وتصل إلى العالم طفلة جديدة. كم فرحت عندما أخبرها سنوحي أنها تحمل بنتًا!

- حتكون أجمل واحدة في القصر يا مليكي العزيز.

- حتكون أجمل واحدة في الجزيرة يا مليكتي الجميلة.

كم اشتاقت لأوزير!

"يجعل أعداءك تحت رجليك وف قبضة إيديك".

هكذا دعت له وهي تودعه على بوابة القصر.

-كان نفسي أكون معاك.

- شهرين بالكتير وأرجع.

- مش حيبطلوا مهاجمتنا أبدًا؟

- هو ده طبع ملوك الرمال.. إحنا بنزرع ونقلع ونبني علشان نعيش، وهم بيسرقوا ويقتلوا علشان ياكلوا.. ح أأمن الحدود وأرجع لك.

تنظر إلى الندوب التي تزين جسدها، كم حرب خاضها البنايين وكم معركة وهي تحارب بجوار أوزير كتفًا بكتف! وكم كان انتصارهم الأخير مدويًا تغنى به الشعب وهتف باسمها في الشوارع وهي عائدة من ميدان الحرب بجوار زوجها الملك!

- مليكتي..

تلتفت إلى صاحب ذلك الصوت الجميل الذي يحاكي أباه فيناديها: "مليكتي". تقبل جبهة حور وتربت على رأسه، فتتحسس شعره المفلفل الذي يشي بشقاوة صاحبه، تنظر إلى عينيه اللامعتين وهو يقول:

- مش حنروح البحر النهارده؟

يتقافز حولها حور، ابن الثلاث سنوات، وهي تخطو شامخة مهيبة في ردهات القصر متجهة إلى باب البحر.

يجتازان حديقة القصر الخلفية التي تنتهي إلى رمال الشاطئ، فيبدأ حور بالجري على الرمال الدافئة بينما تتلألأ المياه وهي تعكس شعاع الشمس العفي، تخلع ثوبها الشفاف وتبتسم وهي ترى حور يعدو خلف الأمواج المتعاقبة ويلاحق سرطان البحر ذا الكلابات الضخمة.

تواجه الشمس، تستلقي على الرمال وتغلق عينيها مستسلمة للشعاع العفي وهو يغمر جسدها الجميل الممشوق..

"كم يعشق أوزير لون جسدي الأسمر! وكم أعشق أنامله وهي تستكشف جسدي كل مرة وكأنها أول مرة! كم أعشق روحه التي

تنساب من أنامله إلى جسدي فتتخللني فيتولاني الخدر وأستسلم له ليروي ظمأي ويشبع احتياج نفسي للاحتواء!".

- ماما.. ماما.

تُخرجها صيحات حور من أحلام اليقظة، تفتح عينيها وتلتفت بسرعة لتجد حور واقفًا يشير إلى عرض البحر وهو يصيح:

- طفل جديد.. طفل جديد.

تتمتم الست:

- تاني؟

تنهض الست من رقادها، تتأكد من وجود الخنجر في إزارها، ثم تخطو ناحية المياه الباردة وتسبح في اتجاه الطوف.

"كم طفلًا جاء من قبل؟"، لم تعد تذكر العدد، وها هو طوف جديد.

مع اقتراب الست من الطوف تشعر بحركة قوية تحتها، فتغوص برأسها في الماء، لترى مجموعة من الأسماك الضخمة المتوحشة وهي تطوف حول الطوف.

"يبدو أن حركة الطفل جذبتها".

تُخرج خنجرها من إزارها ملوحة به في يدها ليلمع في ضوء الشمس..

كلما اقتربت أكثر من الطوف، اشتدت حركة الأسماك تحتها في الماء؛ لقد أصبحت بالنسبة للأسماك الآن منافسًا على الوليمة. تزداد الأسماك شراسة وعصبية، فتبدأ في ضرب الطوف بزعانفها الخلفية علَّ الغنيمة تقع؛ يهتز الطوف بعنف. ما إن تضع الست يدها على الطوف حتى تشعر بنصل مسنن حاد يشق فخذها، تمد الست يدها فتأخذ الطفل الصارخ الباكي من فوق الطوف، وتسنده على كتفها بيدها اليمنى بينما يدها اليسرى تلوح بالخنجر، تنظر في المياه تحتها فترى الدماء تندفع من فخذها الأيسر. تُهيج رائحة الدماء الأسماك المتوحشة أكثر فأكثر، فتبدأ بمهاجمة جسد الست مباشرة. تضرب الست بالخنجر حولها في الماء، في محاولة لإبعاد الأسماك الهائجة التي بدأت تضربها بزعانفها الخلفية بكل قوة. تدفع الست المياه بقدميها بأقصى ما تستطيع من قوة وسرعة كي تصل إلى رمال الشاطئ قبل أن تخور قواها. تسير الست أخيرًا على الرمال وهي تحمل الطفل، بينما الدم ما زال يتدفق نازفًا بغزارة من فخذها.

يرى حور الدم والإعياء على أمه؛ فيصرخ:

- مليكتي.. مليكتي.

- انده سنوحي بسرعة؛ الطفل سخن زي النار.

تنزل الست على ركبتيها، تضع الطفل على الأرض برفق، ثم ترتمي على الرمال مغشيًّا عليها.

*****

- مولاتي.. مولاتي.

تشعر الست برائحة نفاذة توقظها من الإغماء، فتفتح عينيها لتجد سنوحي طبيب الملك جاثيًا على ركبتيه بجوار سريرها، مرسومًا على وجهه ابتسامة شاحبة.

- حصل إيه؟

- شوية تعب.. بسيطة.. الظاهر عملتي مجهود كبير لإنقاذ الطفل.. ضربات الأسماك معلمة على جسمك كله تقريبًا.

تنظر الست إلى بطنها، ثم إلى سنوحي متسائلة، فيرد:

- فقدنا بنتك للأسف.

تصمت الست برهة، تشيح بوجهها محاولة إخفاء الدموع المنسابة:

- وفين الطفل؟

يأتيها صوت سنوحي مستطردًا:

- الظاهر مش حتقدري تخلفي تاني.

تغمض الست عينيها وتتنهد في ألم، ثم تقول ببطء وحسم:

- فين الطفل؟

- الطفل كان محموم وجعان. إديته العلاج، وواحدة من الوصيفات جابت له مرضعة من الشرقيين.

- عايزة أشوفه.

تذهب إحدى الوصيفات فتأتي بالطفل تحمله مرضعته، تمد الملكة يدها لتأخذ الطفل وهي تسأل سنوحي:

- حيعيش؟

- أيوه. بس الظاهر إن الحمى حيكون لها أثر عليه. حنحاول نعالجه قد ما نقدر.

- حيبقى معوق زيي يعني.

- أنتي مش معوقة أبدًا.. أنتي ملكة عظيمة ومقاتلة شجاعة، وعندك حور أجمل ولي عهد في الدنيا.

- كان نفسي أدي الملك هدية لما يرجع.. كان نفسي في بنت تحيي ذكراي وتزين القصر والمملكة.

تصمت الست برهة، ثم تقول بنبرة تفاؤل:

- حاسميه بحري.

يهتف حور في سعادة:

- بحري! ممكن يفضل في القصر ويبقى أخويا؟

- أيوه، ممكن. أخوك وابني.

الشرقيين

مع تكرار ادعائها المرض وعدم قدرتها على الحضور يوميًّا إلى القصر، وبرغم أن الست قد خصصت لها غرفة للمبيت في القصر، فإن مرضعة بحري تحججت بعدم استطاعتها ترك زوجها وابنها. ولما كان بحري قد أبى إلا أن يلتقم صدر هذه المرضعة، رافضًا غيرها؛ فلم تجد الست بدًّا من أن يذهب بحري ليقيم مع المرضعة في منزلها إلى أن يُفطم.

- خدي بالك من الأمير بحري يا هوديت.

- في عيوني يا مولاتي.. ده من الشرقيين.. مننا يعني، وكمان أمير.. أول مرة يبقى عندنا أمير.. ده إحنا حنشيله على راسنا.

الست ضاحكة:

- بقيتي بتتكلمي زي البنايين.

- من عاشر القوم يا ستي.. ده أنا جيراني وكل حبايبي بنايين. وعهد عليا ح أجيبهولك راضع ومستحمي وزي الفل كل أسبوع مرة.

- ههه وحور يجيله يلعب معاه في وسط الأسبوع، وحيكون معاه كمان سنوحي علشان يتطمن عليه وعليكم.

أخذت هوديت بحري من حضن الست التي ودعته بابتسامة مُحبة حانية، بينما أمسك حور يد أخيه الصغيرة وربت عليها برفق.

احتضنت هوديت بحري وضمته لصدرها بقوة وهي تهبط الدرج في سرعة. مين كان ليُصدق أن ابنها العليل الذي كان يشرف على الموت قد أصبح في يوم وليلة أميرًا يأتيها من ورائه كل هذا الخير؟! لقد كانت أقصى أمانيها وهي تلقيه في البحر أن يجده صياد يتبناه، أو أن يجده صاحب جاه فيتخذه خادمًا؛ لكن أن يصبح أميرًا؟!

"ويمكن كمان يبقى ملك.. ليه لأ؟! ما هي الدنيا فيها العجب.. وفيه أعجب من كده.. كنا حنعمل إيه إحنا في طفل عليل ما بيبطلش صريخ؟! كنا فاكرينه حيبقى عالة.. بقينا إحنا اللي معولين عليه..".

تركب هوديت عربة القصر، وما إن تجلس فيها حتى تُخرج صدرها لتُلقمه لبحري بينما تهمس في أذنه:

- كل.. واتغذى واكبر.. حس بيا.. شم ريحتي.. أيوه، دي ريحة أمك.. الست مش أمك، أنا هوديت أمك.. كل من صدري واشبع.. وآلاي هو أبوك.. وشاران أخوك.. حور مش أخوك.. شاران أخوك.. فاهم يا أميري الصغير؟ هههههه! فاهم يا مليكي؟

وهكذا في يوم وليلة تحول بيت آلاي وهوديت إلى بيت الأمير بحري، والذي ستتم زيارته أسبوعيًا من شقيقه ولي العهد حور، الذي سيذهب في موكبه الأميري ومعه العالم المبجل سنوحي طبيب القصر.

تبعًا لأوامر الملكة، تم تجديد بيت آلاي بالكامل، ودهانه بألوان ونقوش ملكية، مع إضافة غرفة جديدة تنعم بالشمس والهواء للأمير الطفل بحري.

"يا أرض اتهدي ما عليكي قدي؛ خرجْت من حارة الحمالين هوديت المرضعة، وراجعة الحارة معايا أمير.. ومش أي أمير؛ ابني الأمير.. والموكب حيصحي الحارة كلها.. وأنا مش ح أقول لحد حاجة.. ح أسيبهم على نار كده لحد الصبح، وبعدين ح أقول.. وأزيد وأعيد".

تنزل هوديت من العربة الملكية، تدفع باب البيت بقدمها وتدخل وهي تقول بصوت مسموع:

- ده بيتك يا بحري.. ده بيتك.. وده أبوك آلاي، وده أخوك شاران. وبكرة ح أعرِّفك بخالك وعمك وأهلك كلهم.

يقوم آلاي بجسده القصير المترهل من على الأرض وهو يحاول أن يتمالك نفسه من فرحة انقلاب الأحوال ويسر المآل.

- اهدي يا هوديت.. اهدي شوية.. هاتي الواد.. عايز أحضنه.

- دلوقت بقيت عايز تحضنه؟! مش أنت اللي كنت قاعد تصرخ وتقول ح نأكله منين ونازل عيان وحيفيدنا بإيه؟! أديك لبست الكتان وبيتك اتبيض ألوان!

- سيبي الواد.. سيبي.

يحتضن آلاي بحري وهو يقول:

- يا وش الخير.. يا قدم السعد.. يا وش الخير.. يا قدم السعد.

يقترب شاران ابن العاشرة ليتفحص بتعجب هذا الطفل الذي ألقاه بيديه منذ أيام في البحر ليموت فإذا به يعود في عربة ملكية ليحتل غرفة جديدة لم يرَ شاران لها مثيلًا من قبل.

*****

اقترب الموكب الملكي من الحارة، لم يكن هذا موكب ولي العهد، ولكنه موكب الملكة؛ فلقد أرادت الست أن تطمئن على المنحة التي جاءتها، وتتأكد من أن بحري في أحسن حال.

جرت هوديت ترتب غرفة بحري بسرعة، بينما صعد آلاي رمح ليجد ما يستر به نفسه من ملابس منشورة على سطح المنزل.

- أهلًا وسهلًا.. الحارة نورت يا مولاتي.

هكذا قالت هوديت وهي ما زالت تلهث، بينما اندفع آلاي من السطح ليقع على السلالم منبطحًا على الأرض تحت قدمَي الملكة. يرفع آلاي رأسه متألمًا، ثم يقول:

- أهلًا، مولاتي.

تبتسم الملكة، بينما يدخل حور منطلقًا يبحث عن بحري ليجده نائمًا في سرير ملكي صغير في حجرته التي رتبها مسئولو القصر. تخطو الملكة إلى حجرة بحري يتبعها سنوحي الذي يبدأ في الكشف عليه والاطمئنان على حالته. وما إن ينتهي حتى يقول موجهًا كلامه للملكة:

- متهيألي الحمى حتسيب تأثير على رجله الشمال.

تتعجب الملكة لهذه الصدفة العجيبة فتقول:

- نفس الرجل اللي شقها السمك المتوحش!

يبتسم سنوحي ويقول:

- دي مجرد صدفة يا مولاتي.

تنتبه الملكة إلى هذا الطفل الذي يتابعها بذهول منذ دخلت، ويحوم من بعيد كي تظل في مجال رؤيته، تتحرك الملكة تجاه شاران وتقترب منه لتنحني حتى يصبح وجهها في مواجهة وجهه، فينسدل شعرها على كتفها، تتسع حدقتا الطفل رهبة وانبهارًا بينما عطر الملكة يتملكه، تبتسم الملكة وتسأله:

- وأنت اسمك إيه؟

- .....

يتجمد شاران ولا يقدر على النطق، فتبادر هوديت مسرعة بالقول:

- شاران ابني، وحيكون أجمل أخ لبحري.

يلتفت حور منتبهًا، بينما تلتفت الملكة وتتجه للخروج، فيتقدم آلاي بتردد نحوها ويقول:

- مولاتي.. منذ جاءنا الأمير ومعرفة أهلنا من الشرقيين بصلتنا بالقصر وهم يأتون إلى منزلي كل يوم.. والحقيقة عندهم طلبات بسيطة.. يعني لو أمكن..

تبتسم الملكة وتهز رأسها موحية له بأن يسترسل.

- يعني معظمهم بيشتغل في الشيل والحط والنقل. ودي أعمال مرهقة..

فيرد صوت لاهث من الخلف:

- شعب البنايين كله بيشتغل في الشيل والنقل.. صباح الخير يا مولاتي، أنا برعو شيخ حارة الحمالين.. جيت جري لما عرفت إنك شرفتينا.

يستطرد آلاي حانقًا:

- أيوه. لكن إحنا كنا عايزين نشتغل في أعمال مريحة شوية.

فيسأله سنوحي:

- عندك علم بالطب تشتغل معايا؟

- لأ.

- طاب اللي بيشتكوا دول عندهم خبرات في إيه وإحنا نساعدهم؟

- الحقيقة يا سيدي من ساعة ما جينا وإحنا بنشتغل نفس الشغلانة.

- بس على ما أفتكر انتو بتقولوا إن جدكم الأكبر قدر بجده وأمانته يبقى أمين على خزاين البنايين.

- آآآآآ.....

- يعني كل المطلوب الجدية في الشغل والأمانة.

تخرج الملكة بينما يتدافع وراءها آلاي وبرعو، بينما تدعو هوديت للملكة والملك وولي العهد.

تتقدم الملكة في الحارة وتبدأ في المشي بين الناس المحتشدة لرؤيتها، ثم تسأل برعو:

- هو فيه بنايين ساكنين هنا؟

- أيوه طبعًا.. البيوت كلها لازقة في بعض شرقيين على بنايين، ما تقدريش تميزي بيت عن التاني. وحارة الحمالين كلها بتشتغل في الشيل والحط من قبل الشرقيين ما ييجوا بزمان.

يأتي حور جريًا ليرافق الست في جولتها، وليسعد بسماع الهتاف بحياتها وحياته.

تنتهي الست من جولتها في حارة الحمالين، تركب عربتها الملكية وهي تقول:

- خدي بالك من بحري يا هوديت.

- في عيوني يا مولاتي.

فيرد برعو:

- في عينينا كلنا، ما تخافيش أبدًا؛ دي الست هوديت دي أميرة وبنت حلال، وكلنا حنقف جنبها ونساعدها.

ينظر آلاي إلى برعو متعجبًا من ذلك الإطراء والمديح، ليلمح أيضًا نظرة إعجاب بزوجته؛ فيبتسم ويدخل إلى المنزل.

بعد برهة، وبينما يختفي موكب الملكة عن الأنظار، يرتفع صراخ آلاي:

- هوديت.... هوديت.

يمتقع وجه آلاي الذي يرى تمثالًا لسيدة تفرد يديها المجنحتين إلى أعلى، موضوعًا في ركن من أركان غرفة بحري، فيعاود الصياح:

- هوديت.. هوديت.

فتأتي هوديت جريًا:

- خير؟

- ما هذا التمثال اللعين؟

- ده حطه واحد من حراس الملكة.

- المطرقة.. أين المطرقة؟

يجري آلاي ليأتي بالمطرقة، فتقف هوديت أمامه لتمنعه وهي تقول:

- أنت عارف حيحصل إيه لو كسرته؟ أقلها بحري حيضيع من إيدينا وبيتنا حيتخرب.

يكظم آلاي غيظه بينما تخرج هوديت من الغرفة لتأتي بخرقة بالية تضعها فوق التمثال.

- كويس كده؟ بس افتكر بقى لو أي حد من البنايين جالنا نبقى نشيلها.

*****

أوزير

احتشد شعب البنائين بأكمله في الشوارع، رفعوا الرايات وعلقوا الزينات احتفالًا بعودة أوزير منتصرًا، بلغهم الخبر أمس الأول فلم تنم المدينة العظيمة يومين بليلتيهما.

تجمع الرجال والنساء من الحارات والأحياء إلى شوارع البلدة الرئيسية، وشد الفلاحون الرحال من الكفور والنجوع إلى البنادر، ومنها استقلوا المراكب الشراعية السابحة في النهر العظيم إلى العاصمة؛ فها قد دحر أوزير جيوش ملوك الرمال وعاد إلى المدينة، بعد أن أمَّن الحدود وزرع السلام والسكينة في القلوب.

سيرجع الملك إلى قصره ويرجع الجنود إلى حقولهم وأعمالهم، سيتركون السيوف والحراب والخناجر ويمسكون بالفأس والشادوف والقصعة والورق والقلم. ستخضر الأرض مرة أخرى، سيبدأ البناء ويعم الرخاء.

من مدخل المدينة الشرقي وحتى ساحة الأعمدة الكبرى، التي تتوسطها بحيرة اللوتس، والتي تنتهي بالمكتبة الضخمة بسلالمها الحجرية المهيبة حيث سيقام احتفال النصر، لا يوجد موطئ لقدم.

جلست الست وبجوارها حور ولي العهد، بينما وقف سنوحي وتحوت وقادة الحرس وعمد المدن وشيوخ البلد حولهما، ومن خلفهم

بدت المكتبة الكبيرة شامخة بأعمدتها الباسقة الزاهية الألوان والمزينة بتيجان زهور اللوتس.

مع دخول أوزير من البوابة الشرقية للعاصمة ارتفعت صيحات النصر والتهليل والهتاف بحياة أوزير حامي الديار من يعطي للأرض الخضار، وأوزير يلوح بكل هدوء وثقة لشعبه موزعًا ابتسامته المضيئة المطمئنة على الجميع ليبعث فيهم الراحة والسكينة والفرح.

يقترب الموكب من مدخل الساحة الكبرى، فينطلق حور جريًا نحو أبيه، تتبعه الست بثوبها الملكي الرائع وهامتها المرفوعة في السماء فخرًا بزوجها ومليكها.

مع اقترابها من أوزير، وبرغم ابتسامته الوضاءة، تشعر الست بأن هناك شيئًا غريبًا، شيئًا لا تستطيع تفسيره بعد. تقترب الست من العربة الحربية ذات الأربعة أحصنة، والتي تقل الملك، تمسك بيده فينزل من العربة لتحتضنه، فيدخل في حضنها لبرهة ويزفر كمن وجد الراحة أخيرًا.

يمسك أوزير بيد الست ليسيرا في الساحة وسط طوفان البنايين الفرحين، ليصعدا السلالم الضخمة للمكتبة الكبيرة، بينما يجري أمامهما حور في بهجة وسعادة.

تجلس الست في مقعدها، ويجلس حور في مقعده، في انتظار خطبة الانتصار. يلتف أوزير ليواجه الحشد الكبير، فيصمت الجميع ويسود السكون.

"شعب البنايين العظام

يا اللي صنعت المجد من أول الزمان، وعلى طول الزمان

النهارده نحتفل بأكبر حرب دخلتها البلد

حربنا ضد ملوك الرمال

الحرب انتهت

لكن دورنا ما انتهاش

دورنا في البُنا والعلم والمعرفة

دورنا في نشر النور والسلام والخير

علينا وعلى كل الناس

الدور ده مش حيكمل أبدًا طول ما فيه حرب إن كان ع الأرض أو ع الخير

علشان كده أنا وافقت على معاهدة سلام

تضمن إن مافيش حروب تاني

تضمن إننا نبني ونعمر ونزرع ونقلع

من غير ما ولادنا تموت

ومن غير ما يهاجمنا حد من البوابة الشرقية

الحرب دي.. آخر الحروب

والسلام دعوة للخير والسكينة لكل البشر

عاش الوطن.. عاش البنايين".

رانت لحظات من الصمت على الحشد الذي لم يفهم بالضبط معنى الخطاب؛ فهو ليس كأي خطاب نصر آخر سمعوه من أوزير من قبل، وكيف يمكن معاهدة ملوك الرمال؟!

ينتبه رئيس الحرس للمهمة المتصاعدة، فيتقدم خطوتين ويهتف:

"عاش أوزير".

"عاش شعب البنايين".

فيرد الحشد بكل قوة وهو يحاول أن يستفيق من صدمته:

"عاش أوزير".

"عاش شعب البنايين".

*****

دخل الملك إلى الحجرة الملكية، ليجد الست في أبهى زينتها وأرق ثيابها وأزكى عطورها، تقف في انتظاره بعينين متسائلتين حنونتين، فيحتضنها وهو يهمس في أذنها:

- آه لو تعرفي بحبك قد إيه.. وبعشقك قد إيه.. أنتي مش بس مليكتي، لكنك كمان صاحبي وسندي في الدنيا.

تضمه الست إلى حضنها أكثر فأكثر، صامتة في انتظار لحظات البوح والفضفضة؛ فهناك ما يثقل قلب مليكها، ولا بد أنه سوف يزيحه عن كاهله ويفضي به إليها؛ فلطالما ألقى همومه تحت قدميها ليرتاح. سيبوح.. قطعًا سيبوح.

- طمنيني الأول على مولودتنا الجميلة.

تخرج الست من حضن أوزير برفق، تجلس على حافة السرير وتجذب أوزير ليجلس بجوارها، وتقول بابتسامة شاحبة:

- آسفة جدًّا، ما قدرتش أحتفظ بيها.

ينظر لها أوزير متعجبًا.

- اضطريت أنزل البحر، والأسماك المفترسة هاجمتني بصورة غريبة وبكل قوة.

- اضطريتي! ليه؟

- كان فيه طوف..

أوزير محتدًّا:

- مش معقول... طاب ما ندهتيش الحرس ليه ييجوا هم يطلعوه؟ ما هو كل شهرين تلاتة بيجيلنا طوف زي ده، ومش عندنا بس، عند كل البنايين من كبارات البلد... ما أنتي عارفة إن الشرقيين بيرموا الأطفال الضعيفة وأطفال العشق والغواية في البحر. إمتى حصل الكلام ده؟

- من سنة تقريبًا.

- يعني كنتي خلاص على ولادة.

- معلش.. اتعوضنا بطفل جميل بقى أخ لحور.

- .....

- سميته بحري.

ترتسم على وجه أوزير ابتسامة شاحبة يواسي بها نفسه ويواسيها، ويقول:

-كان نفسي في بنت شبهك.

تبتسم، تصمت برهة ثم تقول:

- وأنت أخبارك إيه؟ وإيه حكاية معاهدة السلام دي؟ إحنا من إمتى بنعمل معاهدات مع ملوك الرمال؟

يصمت أوزير برهة، يزم شفتيه، يغمض عينيه، يزفر ويبدأ في البوح:

- في أول الحرب انتصرنا انتصارات مبهرة، بعد شهرين من المعارك كان واضح قوي فرق الجيوش، مع إن ملوك الرعاة كلهم اتحدوا! هه، لأول مرة في حياتهم يتحدوا على حاجة. كان خلاص فاضل معركة أو اتنين وندخل عاصمة الرمال.. مش عارف بالظبط إزاي ده حصل، كانت الشمس خلاص بتغيب، واحد من الحرس حتى مش قادر أفتكر شكله، جالي بسرعة وشاور لي على مكان في أعلى تل الرمال البعيد، وقال: "غزال يا مولاي".مش عارف إزاي تخليت عن حرصي وركبت فرسي وجريت أصطاد الغزال.

مجموعة الحرس الملكي جريت ورايا بس أنا كنت سبقت بكتير. والغزال عامل زي السراب، يظهر ويختفي. غزال جميل قوي، عمري ف حياتي ما شفت زيه. بقيت بأجري وراه زي المسكون، ههه ملك

مسكون بغزال! فجأة الشمس غابت، فقت، وقفت مش قادر أحدد مكاني، فرسي حس بيا وبقى يلف ف دواير وكأنه عايزني أختار سكة أمشي فيها. وأنا هجم عليا الضلام، الغيام حجب السما ومافيش ولا قمر ولا نجوم، ومش شايف حاجة قدامي، ما لقتش حل إلا الثبات في مكاني. الجو كان بارد جدًّا، كنت حاسس إن أطرافي بتتجمد.

الليل طول عليا جدًّا، في نص الليل ابتديت أسمع أصوات غريبة بتحاوطني من بعيد، ماعرفتش دي أصوات حيوانات والا إيه. وفجأة سمعت صوت رئيس الحرس الملكي بينده: "مولاي.. مولاي..". لقوني أخيرًا، وقررنا نثبت في مكاننا لحد الفجر. ما كناش عارفين مكاننا بالظبط. طلع علينا الفجر؛ لقينا نفسنا متحاوطين بجيوش الرمال. ومع أول ضوء هجموا علينا، الحرس الملكي حوطني من كل ناحية علشان يحميني، كل واحد من الحرس الملكي فداني مش بس بجسمه، لكن كمان بروحه وروح أسرته وأولاده. مقتلة رهيبة كنت أنا هدفها الأساسي، ومع ذلك مافيش حد م الحرس سلم ولا استسلم، كانوا مصممين يفدوني لآخر نفَس في حياتهم.

كنت متأكد إن دي النهاية، لكن القدر عجيب؛ زي ما جاب لي غزال يتوهني، وزي ما خلاني أشوف مقتل أقرب جنودي وأشجَعهم بعيني؛ خلاني أعيش، ما رضاش يسيبني أموت! تخيلي مين ينقذني! طلبة مدرسة الحرب القريبة من المكان؛ كانوا رايحين ينضموا للجيش، فوجئوا مرة واحدة بالملك مُحاصَر وعلى وشك القتل. متخيلة أعمارهم؟! متخيلة خبرتهم في الحرب؟! متخيلة عددهم؟! من غير أي تفكير أو تردد

رموا نفسهم في المعركة بكل شراسة، كسروا الطوق اللي كان حواليا وابتدوا يفدوني ويحاولوا يخرجوني. وجيوش الرمال طوقتني من تاني أنا والطلبة؛ تصورت إن خلاص كمان الطلبة دول حيموتوا علشاني.

فجأة توقف جيش الرمال عن الحرب، لكن عمل طوق محكم حوالينا، وبدأ جيشي يظهر من بعيد، يمكن كان قدامه ساعة ويوصل لنا، ساعة كان حيموت فيها كام واحد من الولاد! وبقى قدامي حل من اتنين: يا إما أضحي بالولاد، يا إما أقبل معاهدة صلح. تمنيت ساعتها الموت، لكن للأسف ما جاش!".

تقترب الست من أوزير، تحتضن رأسه بيديها وتجذبه إلى صدرها ليستكين، يغمض أوزير عينيه لبرهة من الوقت، ثم يفتحهما ببطء وهو يسمع صوت حور يقول:

- مليكي.. مليكتي.

يدخل حور وهو يمسك بيد بحري.

يفتح أوزير ذراعيه، فيجري حور في حضنه، بينما يخطو بحري فتخذله قدمه اليسرى فيتشبث بساق أوزير قبل أن يقع.

ينظر أوزير –الذي فوجئ بعجز بحري– بجدية مصطنعة إلى بحري، ويسأله مداعبًا:

- اسمك إيه؟

يرفع بحري رأسه لينظر إلى أوزير بوجه متعجب.

- اسمك إيييه؟

يبدأ بحري في الابتسام وضرب ساق أوزير بيديه، وأوزير يبدأ في الابتسام هو الآخر ويستمر في السؤال:

- اسمك إيه؟

يضحك حور، ويشتد انهماك بحري في ضرب ساق أوزير، فتبدأ الست في الضحك. يرفع أوزير بحري ويضعه على حجره وهو ما يزال يسأل:

- اسمك إيه؟

يدفع بحري الست من كتفها بعيدًا عن جسد أوزير، فتتسع حدقتا أوزير متعجبًا ويفغر فاه مقهقهًا، فتنضم له الست وحور.

تردد حيطان الغرفة أصوات ضحكاتهم، بينما يبدأ بحري في ضرب صدر أوزير.

*****

تبدأ الست في إطفاء شموع حجرة النوم الملكية، تقف لوهلة أمام آخر شمعة، تتردد ثم لا تطفئها، كم تحب أن تراه ويراها! تخلع رداءها وتخطو تجاه أوزير. تزفر ذلك الثقل الذي كان جاثمًا على صدرها، وتقول:

- وحشتني يا مليكي الجميل.

فيبتسم وتلمع عيناه ويقول:

- آاه.. وحشتيني قوي يا مليكتي الجميلة.

تلثم جبينه ثم عنقه وصدره، يجذبها إليه ليلتهم شفتيها، تلهج أنفاسها وتصدر عنها آهة عشق، يدفعها برفق لتنام على ظهرها، يلثم صدرها برقة، ثم بعنف واشتياق، ترتفع آهاتها وتغمض عينيها وهي تشعر به يجتاحها ويحتل جسدها، فتستسلم منتشية.

ملوك الرمال

لم يمضِ شهر على عودة أوزير، وها هو شعب البنايين يحتشد مرة أخرى ولكن بدون رايات ولا فرح.. ولا صوت. المدينة المحتشدة عن آخرها من البوابة الشرقية وحتى القصر، يسودها الصمت التام؛ فاليوم سيأتي ملوك الرمال لعقد معاهدة السلام.

يتقدم الموكب من بعيد، ينتاب البنائين مشاعر متضاربة بين الارتياب والتوجس والفضول؛ فبعد مئات المعارك وعشرات الحروب ها هم ملوك الرمال يدخلون العاصمة العظيمة بدون قتال!

كلما تقدم الموكب أكثر، بدأت مشاعر الدهشة تستولي على المحتشدين؛ فملوك الرمال حفاة يرتدون أسمالًا بالية ويركبون دابة غريبة ضخمة الحجم مرتفعة بشكل كبير عن الأرض. والدابة تهتز في جميع الاتجاهات؛ فيرتج الملوك في شكل أثار الضحك المكتوم. خلف الملوك مجموعة صغيرة من الحرس، بعدهم مجموعة من تلك الدواب الغريبة، محمل كل منها بهودج يخفي ما بداخله بقطع مهلهلة من صوف الخراف.

يبدو ملك الملوك في أول الموكب؛ شيخ هرم مكوم فوق دابته التي لا يقدر على قيادتها فيُسيرها له شخص يمسكها بحبل مربوط بأنفها.

يسير الموكب ببطء وتؤدة، يرشده الشعب المحتشد إلى اتجاه القصر.. فجأة تمتد يد صغيرة من داخل هودج لتزيح جزءًا من ستاره. يفزع البنايين من ذلك المشهد الذي لم يروا له مثيلًا من قبل:

"إيه ده؟ هم ستات الرمال مستخبيين وعاملين زي الأشباح كده ليه؟!".

كما تفزع أيضا نساء الرمال من المشهد:

"ما هذا؟ نساء البنائين يقفن عاريات في الشوارع؟!".

"دول مش أشباح.. دول عفاريت!".

"ولمَ يخالطن الرجال هكذا؟! لسن عاريات فقط، بل أيضًا عاهرات".

في منتصف المسافة بين المدينة والقصر، تصدر آهة ألم من ملك الملوك؛ فيتوقف الموكب فجأة. يشد الشخص الممسك بدابة ملك الملوك أنف الدابة، فتبرك على ركبتيها في ارتجاج عظيم يسقط معه الملك الهرم من على دابته، فيلحق به أحد حراسه قبل أن يسقط على الأرض، ينزل باقي الملوك من فوق دوابهم في اضطراب مسرعين ليحملوا الملك العجوز، ويضعونه برفق على الأرض، بينما يجري الحرس لعمل خيمة فوق ملكهم. ترتفع الهمهمات من داخل هوادج نساء الرمال، وترتفع أصوات أنين مكتوم.

*****

- مولاي ملك البنائين، سيدي ملك ملوك الرمال أصيب بوعكة صحية مفاجئة لن يستطيع معها الحضور إلى القصر، ويرجو إن أمكن تشريفكم لخيمته.

بدت الحيرة على وجه أوزير الذي كان مستعدًّا لمقابلة ملوك الرمال في قصره الملكي، نظر إلى الحكيم تحوت يطلب المشورة، بينما بدا الغضب على وجه الست التي لا تثق في ملوك الرمال على الإطلاق.

يصمت تحوت للحظة، ثم يقول موجهًا كلامه للرسول:

- بلغ سلامنا لملك الملوك.. حنبعت حالًا سنوحي طبيب القصر علشان يزوره ويطمن عليه ويطمنا ويعمل الواجب.

ارتبك الرسول ثم قال:

- كنت أتمنى أن يتنازل الملك ويشرفنا في....

بدا للرسول أن كلامه غير مسموع من أحد، فيستطرد:

- آسف إن كنت قد أطلت.. اسمحوا لي بالانصراف.

يشير أوزير إلى الحرس ليصطحبوا رسول الرمال إلى الخارج، بينما يعطي أوامره كي يذهب سنوحي لمعالجة الملك الهرم.

- عين العقل يا تحوت.. لو كنت رحت كان الشعب اعتقد إننا اتهزمنا في الحرب، وإن الموضوع استسلام مش سلام.

- ملوك الرمال عارفين كويس إنه سلام، وإنهم لو كانوا قتلوك كانت الحرب عليهم من البنايين حتبقى تار مش حيخلص أبدًا غير باختفائهم من على وش الأرض.

تستمع الست للحوار ثم تقول:

- ماتزوحلهمش أبدًا.

- خلينا نشوف سنوحي ح يقول لنا إيه يا مليكتي الجميلة.

*****

مع نسمات الفجر الأولى، تسري برودة رطبة في جسد ملك ملوك الرمال، يفتح عينيه ليبدأ في إدراك ما حوله، هو لا يعرف تمامًا كنه ذلك الترياق الذي أعطاه إياه سنوحي، كل ما يعلمه هو أن آلامه قد تلاشت وأنه قد استطاع أن ينام أخيرًا. يتعجب لتلك البرودة الغريبة التي تصعد من الأرض، يمد يده ليُحكم الغطاء حول جسده الذي تسوده قشعريرة من تلك الرطوبة العجيبة التي لم يعرف لها مثيلًا من قبل.

أغمض عينيه لينام ثانية، تصدم أذنيه أصوات كثيرة متداخلة، زقزقة مئات العصافير، خوار ماشية، صياح ذكَر بط، ضحكات وتواصل بشر، يفتح عينيه وينصت أكثر لصوت الحياة في أرض البنايين.

يتحامل على نفسه ليقوم متثاقلًا مُصدرًا آهة ألم، فينتبه الحارس الواقف على باب الخيمة، فيدخل مسرعًا ليسند خطى ملك الملوك حتى

خرج به من الخيمة، فوضع له الحارس شلتة على الأرض وساعده ليجلس عليها.

رفع ملك الملوك رأسه وقد تلاحقت أنفاسه، ليجد نفسه على ضفة النهر العظيم..

وها قد بدأ يوم البنايين.

أشرعة بيضاء متلاحقة تزين مراكب تنقل البضائع والبشر، صيادون ينشرون شباكهم من مراكب أصغر حجمًا بمجاديف، ماشية تشرب، فلاحون ذاهبون إلى الغيطان، أطفال يمسكون أوراقًا وريشة يتضاحكون، نساء يحملن جرار العسل واللبن والمياه على رؤوسهن ويخطرن ناهدات الصدر ضاحكات السن. والكل يتحرك في تناغم يجمعه تدفق النهر الأسمر والأرض التي يكسوها ذلك اللون الأخضر الزرعي، وعلى الضفة الأخرى من النهر تبدو البرابي الحجرية شاهقة باسقة تصل الأرض بالسماء.

يغمض ويفتح ليملي عينيه من المنظر، يدقق النظر ثم يمد يده إلى الأرض ليغترف منها حفنة، ويقبض عليها بكف يده ثم يرفعها إلى وجهه ليتفرس فيها..

"سوداء.. إنها أرض سوداء هذه التي تفيض بكل ذلك الخير، ما لها تتكوم وتتشكل في يدي هكذا ولا تتسرب كالرمال؟! ما هي هذه العجينة الغريبة؟!".

ينفض الملك يده ثم يقربها من وجهه أكثر، ليجد الغرين الأسود وقد جف والتصق بيده..

"غريب أمر هذه الأرض التي تجعلك تظن أنك قد شكلتها بقبضتك، بينما هي التي صبغتك بصبغتها".

بينما هو غارق في أفكاره، يسمع أصوات عجل عربات تقترب. وما إن تقف العربات حتى يصله صوت ضحكات أنثوية سعيدة متفائلة تقترب..

- صباح الخير.

تبادره كبيرة وصيفات القصر بابتسامة وضاءة، يتبعها ظهور عدد من الوصيفات بملابسهن البيضاء الهفهافة وزينتهن وعطورهن. يسود الذهول على وجه ملك الملوك الذي لا يجد كلامًا في عقله ولا في فمه. تبدأ الوصيفات في وضع أطباق الفول والجبنة القديمة والقشطة والعسل والفطير المشلتت، فتفوح رائحة الطعام الشهية التي لم يعلم ملك الملوك أن لها وجودًا من قبل.

تحوم الوصيفات كالفراشات ليضعن الملاعق والشوك والأكواب، ويبدأن في صب الجعة الباردة لملك الملوك الذي تهدلت أكتافه وبدا مأخوذًا كالأطفال. تنتبه الوصيفات لذهول الملك، فترتفع ضحكاتهن، فينتبه ملك الملوك ويبدأ في الضحك والاهتزاز الذي يتحول إلى سعال يطغى عليه وجه لا يستطيع منع نفسه من الابتسام والضحك.

يحاول الملك تذكر التحية التي سمعها من كبيرة الوصيفات، ثم يقول بصوت يحاول أن يكون مسموعًا:

- صباح الخير.

يضحك حراس الملك ومرافقوه، الذين تجمعوا ليشاهدوا ملكهم وقد دبت فيه الروح.

يمد الملك يده ليأخذ قطعة من الفطير الساخن الطازج، فتغمره رائحة السمن البلدي الشهية، يغمس الفطير في العسل ثم يضعها في فمه وهو يقول لنفسه:

"هذه هي الجنة".

*****

عند الظهيرة ركب أوزير عربته الملكية ليقودها بنفسه، مصطحبًا معه الحكيم تحوت، بلا موكب ولا حرس؛ فلقد أخبره سنوحي أن ملك ملوك الرمال مريض فعلًا وسيكون من الأفضل بل والأكرم أن يذهب أوزير إليه.

ينزل أوزير من العربة وخلفه تحوت، يتفحص أوزير وجوه مستقبليه أمام الخيمة، فيجد الملوك كلهم ولكنه لا يجد الابن الأكبر لملك ملوك الرمال بينهم فيرتاب؛ فالابن الأكبر هو قائد الجيش، وهو المحرض الأول على قتال البنايين واستحلال أرضهم وزرعهم ومدنهم ونسائهم، قائد شرس ومقاتل عنيد. تُرى هل لم يقبل السلام؟ هل كان يطمع في استسلام؟

- تفضل يا سيدي.

يدخل أوزير وخلفه تحوت إلى الخيمة، ليجدا الشيخ الهرم مكومًا يحاول أن يرفع جسده فلا يقدر. يسرع الحرس لمساعدته ليقف بصعوبة مصافحًا أوزير بيد مرتعشة واهنة ترتفع بصعوبة. يجلس ملك الملوك على الأرض ويشير لأوزير كي يجلس بجانبه، ثم يشير بأصبعه فيخرج أتباعه من الخيمة. ينظر أوزير إلى تحوت وعلى وجهه علامات التعجب؛ فيخرج تحوت أيضًا.

يلتفت الشيخ الواهن الطاعن في السن ببطء شديد ناحية أوزير، ويقول بلا مقدمات:

- أتعلم كم عامًا وأنا أحاربكم؟ منذ كنت طفلًا؛ لقد وُلدت على كراهيتكم، ودُربت على قتالكم، وحملت حلم الانتصار عليكم في صدري حتى قبل أن أحبو.. وها أنا الآن أعلم أني لن أستطيع هزيمتكم أبدًا؛ أُكيد أخبرك طبيبك العالم بمدى مرضي. هل تعرف كم فقدت في تلك الحروب؟ لقد فقدت كل أولادي. هل تعلم أنه وقت أن كنتَ أنت تقبل إيقاف الحرب وقبول السلام خوفًا على طلبة مدرسة الحرب، كنتُ أنا أدفن ابني الأكبر وقائد جيشي؟ أتعلم من قتله؟ لم يكن أقوى جنودك ولا أكثرهم خبرة، واحد من طلبة مدرستك الحربية، شاب لم يكمل الستة عشر عامًا؛ بينما كان الكل يسعى إليك لإنقاذك من الحصار، توجه هو وحده بكل رباطة جأش وهدوء إلى ابني وقائد جيشي، وليس معه إلا شجاعته وخنجر.

يصمت الشيخ طويلًا، يسعل ويمسك صدره ألمًا، ثم يستطرد:

- ليس لديَّ إلا مطلبان، أرجو أن لا تردهما: التجارة.. والمصاهرة.

يخرج أوزير من الخيمة بينما يشتد السعال على الشيخ. يركب أوزير عربته ومن خلفه تحوت، الذي ينظر إلى أوزير مستفسرًا.

*****

وكأنهم لفحة حارة محملة بالرمال، لم يلبث موكب ملوك الرمال في أرض البنايين إلا يومًا بليلة، رحلوا قبل الظهيرة في نفس يوم الاجتماع. يبدو أنهم يرغبون في الوصول إلى أرضهم قبل أن يموت شيخهم الذي تم وضعه في الهودج مع زوجته.

رحل ملوك الرمال ولم يتركوا وراءهم إلا الدهشة والتعجب على وجوه وعقول شعب البنايين، كما تركوا في حديقة القصر خيمة وحيدة أمامها حارسان أثارت الدهشة والتعجب على وجه الست.

- مصاهرة يعني إيه؟

تساءلت الست في دهشة، ثم استطردت:

- أنت قلت له حور عنده كام سنة؟ وإزاي حور ولي العهد وقائد جيش البنايين في المستقبل يتجوز واحدة من غير البنايين؟! حيحصل إيه لو حاربونا تاني؟ حتقعد مراته بقى تقول له: ما تحاربش عمي وخد

بالك من خالي و.. أنت قبلت الكلام ده؟! ولو خلفوا حيبقى ابنهم سليل إيه؟ سليل مخلط مع الرمال..

- حور مش حيتجوز حد.

تنظر إليه الست متعجبة، فيستطرد:

- أنا اللي اتجوزت.

لم تنتظر تفسيرًا، ولم تسمع إلا شذرات ممَّا كان أوزير يقوله دفاعًا عن نفسه وعن قراره. انطلقت فورًا من القصر إلى الخيمة، يسبقها غضبها ورغبتها في رؤية تلك الغريمة التي فُرضت عليها فرضًا.

ابتعد حرس الخيمة من أمامها خوفًا ومهابة، مدت يدها وأزاحت ستار الخيمة ودخلت. ضاقت حدقتا الست غير مصدقة لما ترى، ثم قالت:

- أنتي اسمك إيه؟

- ..... عبيكه.

فاستطردت الملكة في ذهول:

- !! أنتي عندك كام سنة؟

فأتاها الرد مرتعشًا:

- ثمانية أعوام، ولكنهم قالوا لي أمس إن عندي اتناشر.

فغرت الست فاها مندهشة، ثم استطردت بضحكة ساخرة:

- هه! بقى عندي تلات عيال!

تحوت

وقف الحكيم والمعلم الأكبر تحوت أمام تلاميذه الجدد يتفحصهم في تعجب؛ فهو لم يكن ليحلم في يوم من الأيام بأن يقف أمام هذه الخلطة العجيبة. ولكن ماذا يفعل؟ فهذا هو طلب الست، والست على العين والراس.

نظر تحوت إلى السماء وأخذ شهيقًا عميقًا معبأ برائحة حديقة القصر العطرة، تبعه زفير طويل، ثم أشار لتلامذته أن يتبعوه في شهيق عميق ثم زفير طويل، شهيق.. زفير.. شهيق..

- غمضوا عينيكم.. خلوا ريحة الزهور تدخل جسمكم.. مش بس من مناخيركم، لكن كمان من مسامكم.. حسوا النسيم على جسمكم.. حسوا بالأرض تحتكم وبشعاع الشمس فوقكم.. زرقان السما والسحاب الأبيض.. وطيروا مع العصافير في رحلتها للنور والخير.. افتح تفتح لك.. اقفل تقفل عليك.. يا نايم افتح.

يفتح الأولاد أعينهم باستغراب من هذا الطقس العجيب الذي يبدو أنه سيكون افتتاحية كل درس، بينما يعيد تحوت النظر في التلاميذ، ثم يقول:

- أنا اسمي.. تحوت.

فيصيح حور ضاحكًا.

- ما إحنا عارفين.

يضحك التلاميذ، بينما يستطرد تحوت وكأنه لم يسمع:

- عمري من عمر البنايين.. يعني حوالي أربع خمس تلاف سنة كده.

ينظر شاران إلى تحوت، ثم يقول وهو يهز رأسه بسخرية:

- هو فيه حد يا عم يقدر يعيش أكتر من خمسين، قول تمانين سنة؟!

يكمل تحوت وكأنه يحكي قصة سحرية:

- شفت كل حاجة، واللي ما شفتوش سمعته، واللي ما سمعتوش قريته. مراتي سيشات هي اللي بتحافظ ع الكتب والمكتبات، وهي اللي بتسجل التواريخ والتاريخ وأسماء الملوك وأعمالهم.. هي اللي بتسجل روح الشعب، أغانيهم وأساطيرهم وحواديتهم.. يعني ممكن نقول ببساطة كده إنها بتسجل الزمن. وكل يوم بالليل، وأنتو كلكم نايمين، تجيب لي كتاب جديد، ما يطلعش عليا الفجر إلا وأنا قريته وفهمت معانيه.. قريت كتب بعدد شعر راسكم، والنهارده حاحكي لكم أول حكاية قريتها ف حياتي...

يصمت تحوت، يغمض عينيه، يرفع رأسه للسماء. ينظر للتلاميذ بعين واحدة ليتأكد من انتباههم، ثم يقول وهو يتحرك أمامهم ليصف الحدوتة بجسده وحركات يديه:

زمان.. زمان.. زمان

قبل الزمان بزمان

ماكانش فيه أرض ولا سما

مافيش بشر ولا ضوء ولا زمن

وسكينة تامة هايمة على بحر الأزل اللي اسمه.. نون

ومَيّة نون الحلوة

كانت حبلى بسر الكون

كل الكون

بيضة كبيرة عجيبة غريبة

مالهاش زي

وجوا البيضة كان فيه إيبيه؟

جوا البيضة كان فيه..

شرارة الحياة

الطاقة اللي شايلة الكون كله

(يصفق تحوت بيديه بقوة، فينتفض الأولاد).

وفجأة الشرارة تنطلق.. بصوت رهيب أقوى من صوت الرعد

قوم إيه؟ تتفتح البيضة وتشرق الحياة

ومعاها طوفان من النور يغمر الكون كله

ويطلع من مَيّة نون أرض عالية.. عالية قوي زي الجبل

وقاعد عليها مين؟

(فيقول التلاميذ في صوت واحد منبهرين:)

- ميييين؟

- آدوم.. وإيه كمان خرج من البيضة؟

- إيه؟

- خرجت كل حاجة في الكون

الشمس والقمر

الشجر والحجر

وكمان البشر

ناس كتير كتير.. ستات ورجالة

أشكال وألوان.. سمر وشقر وصفر وحمر

وكلهم عاشوا مع آدوم في سعادة وخير وسلام.

بدا بحري مندمجًا مذهولًا من تلك الحدوتة، فما إن انتهى تحوت حتى رفع بحري يده بكل حماس وهو يسأل:

- عم تحوت.. عم تحوت.. هو آدوم ده كان شكله إيه؟

يصمت تحوت للحظات، ثم يرد السؤال لبحري:

- غمض عينك وتخيل كده يكون شكله إيه. غمضوا عينيكم كلكم وتخيلوا وقولوا لي..

- ها.. قول يا بحري.

- راجل كبير أوي، وقوي أوي.. عامل زي الملك كده.

يضحك تحوت ويلتفت إلى عبيكه:

- طاب قولي أنتي يا عبيكه.

- ممكن يكون راجل طيب، شعره أبيض ودقنه كبيرة.

- ههه. طاب قول أنت يا شاران.

- راجل زهقان وطهقان من العيشة زي آلاي.

يضحك الأولاد، بينما يبتسم تحوت فيسأله حور مستفهما:

- ما حدش يعرف شكله يا عم تحوت؟

- شاطر.. لكن أنت تتخيله إزاي؟

- أتخيله زيك كده؛ مليان حكاوي وحواديت، بس ممكن كمان يقدر يطير في السما.

يضحك تحوت فيهتز جسده القصير الممتلئ، ثم يقول وهو يرى الست وأوزير يقتربان:

- ههه طول عمري نفسي أطير فعلًا.. كفاية عليكم كده النهارده.

يجري الأولاد فرحين بانتهاء الدرس ليتجهوا إلى شاطئ البحر، فتمد الست الخطى لتحمل بحري حتى يلحق بأقرانه.

يحتضن رقبتها بيديه، يميل برأسه على صدرها، تغمره رائحتها المميزة فيغمض عينيه ويتمنى ألا ينتهي الطريق إلى الشاطئ. بعد برهة يفيق بحري على صوت الست وهي تضعه على رمال الشاطئ الدافئة.

- بحري.. سيب رقبتي.. بحري..

تفك الست بيدها يدَي بحري المتشابكتين خلف عنقها، وتضعه على الرمال، فينظر لها بحري بابتسامة شاحبة، يشيح بوجهه وتترقرق عيناه بالدموع، ثم يبدأ في الزحف على الرمال محاولًا الانضمام لباقي الأولاد.

يجلس أوزير والست وتحوت في حديقة القصر الخلفية المطلة على البحر، يشاهدون حور وبحري وشاران وعبيكه وهم يلعبون في الرمال ويسبحون في البحر. يخترق أوزير الصمت ليقول:

- مين كان يصدق؟ خمس سنين دلوقت من غير حروب!

فتقول الست:

- ملوك الرمال لحد دلوقت موفيين وعدهم.. وكمان قافلين طريق الشرق عن أي عدو تاني.

بينما يعقب تحوت:

- أيوه. بس بقت بتيجي لنا أفكار جديدة مع تجار الرمال؛ أفكار تشبه أفكارنا، لكن معانيها مختلفة عننا خالص؛ نفس الشكل، وساعات نفس الكلام، بس الغايات معكوسة تمامًا.

- ما كانش ممكن نقفل على نفسنا وأفكارنا بس طول العمر يا تحوت.

- طبعًا.. لكن لحد فين نقبل؟ ولحد فين نرفض؟

فتقول الست:

- عمرنا ما قفلنا بابنا ولا خُفنا من حد.. كام ألف سنة والبنايين كانوا وحيفضلوا أعظم حضارة!

فيقول تحوت:

- كل نهار وراه ليل يا مولاتي.

فيقول أوزير:

- وليه ما تقولش كل ليل وراه نهار؟

فيرد تحوت:

- متهيألي إن إحنا في عز النهار.

ينظر الثلاثة إلى البحر، يصمتون ويستسلم كل منهم إلى خيالاته.

بينما يتابع تحوت الأطفال الأربعة بعينيه، يبدأ عقله في طرح تساؤلات يفرضها عليه المشهد:

"يا ترى هو ده مستقبل المملكة؟ هم دول مستقبل البنايين؟ اتنين من الشرقيين، واحد فيهم بقى أمير.. وملكة من شعب الرمال.. وحور؟! والبلد مفتوحة واتملت قصص وحكاوي.. إشي جاي من تجار الرمال، وإشي جاي من الشرقيين! طاب ولحد إمتى حكاوي البنايين حتعيش؟ وحيحصل إيه لو حكاوينا اتلخبطت؟ الأول كنا إحنا بس اللي بنلخبطها ونقلبها ونعدلها.. لكن دلوقت بقت بتجينا حكاوي تشبه حكاوينا في الشكل بس، والجوهر ممسوخ ومسموم..".

بينما ترتسم ابتسامة خفيفة على وجه أوزير الذي يتجرع الجعة الباردة وهو مستمتع بأشعة الشمس:

"مافيش فايدة في تحوت ده! دايمًا شاغل باله بحاجات غريبة! هههههه.. هو مش شايف حجم قوتنا؟! حتى لو كنت أنا اتقتلت، كان الجيش حيدمر مملكة الرمال بالكامل، والست تحكم لحد حور ما يكبر. وبعدين دول حتى ما بيفكوش الخط، ما عندهمش خط أساسًا! يعني نخاف منهم إزاي؟! هه؟!".

تتنهد الست وهي ترى عبيكه تجري وتقفز وتسبح بكل حيوية:

"لحد دلوقت بيتعامل معاها زي عيّلة من دور ولاده.. بقت كام سنة دلوقت؟ تلاتاشر! تقريبًا.. يعني كلها تلات أربع سنين ويبجي خراط البنات.. وتدور وتبقى ست.. آه.. حيبقى عندك كام سنة يا أوزير؟ خمسة وخمسين.. يعني حتبقى لسه محتاج وقادر.. وهي حتبقى عاملة زي الأرض العطشانة.. الشرقانة.. محتاجة تتروي على طول، هه، وما بتترويش أبدًا..".

تنظر الست إلى الخطوط التي بدأت تظهر على ظهر يدها والعروق التي تهدد بالنفور، ثم تقوم مسرعة لتخطو إلى مياه البحر علَّها تغسل فيها أفكارها. وبينما هي تبتعد، تسمع صوت أوزير:

- تحوت، تفتكر سنوحي ممكن يعمل حاجة تساعد بحري على المشي بشكل أحسن؟

- أكيد.. أنت عارف سنوحي؛ عبقري زمانه.

يهز الملك رأسه موافقًا ويصمت برهة، ثم يقول:

- على فكرة، أنا قررت أخفض عدد الجيش؛ بعد السلام ما عم مافيش داعي للجيش ده كله، خلينا نتفرغ للازدهار والعلم والمعرفة.

ينظر تحوت إلى أوزير وقد صدمته الفكرة.

.. ويسود الصمت.

*****

شاران

لم يستطع أن ينسى يومًا رائحة الملكة، وشعرها الذي انسدل على كتفها وهي تنحني لتضع وجهها الجميل النبيل أمام وجهه، لم ينسَ يومًا عينيها المتلألئتين اللتين تشعان ثقة وقوة، لم ينسَ يومًا جسدها الجميل القوي الذي تغلفه غلالة رقيقة من ملابسها الهفهافة. والست تزورهم في الشهر مرة، وهو ينتظر ليراها ويستنشق رائحتها. لم يجسر يومًا أن يتكلم، بل لا يستطيع أن يعرف إذا ما كان يتنفس في حضرتها، فهي كالحلم؛ يراها ويشعر بها وهو مسلوب العقل والإرادة.

والآن لم تعد الملكة تأتي لتزورهم، لكنه يذهب للدرس في القصر كل يوم، ويراها كل يوم وهي تسير مبتسمة مشرقة في حديقة القصر، وهي تأتي لتكلم الحكيم تحوت، وهي تسبح في البحر.

كم يحلم برؤيتها عارية! كم يتمنى أن تضمه كما تضم حور وبحري! كم يتمنى أن تلثم جبهته وهي تغمض عينيها كما تلثم جبين أوزير! كم تمنى! وكم تلصص!

وجوده الذي أصبح طبيعيًّا في القصر فتح له أبواب التلصص على وصيفات الملكة وهن يسبحن، وهن يستحممن، وهن يمارسن الحب، وهو ينتقل من شرفة لأخرى في خفة لص وخوف متلصص.

وبينما هو لا يستطيع أن يتلصص على الملكة، فهو يذهب ليتلصص.. على الملكة.

الصدفة وحدها هي التي جعلته يرى عبيكه في مخدعها، تلك التي كانت طفلة بدأت تصبح أنثى، وهي في مثل سنه تقريبًا، ويراها كل يوم في الدرس ويتحدث إليها حديثًا عابرًا مترددًا وجلًا، ها هو يراها يومًا بعد يوم عارية.

يومها كان يحاول التلصص على تلك الوصيفة الممتلئة ذات الضحكة المجلجلة والشعر المتموج الذي يصل إلى منتصف فخذها، واقفًا يرقبها من خلف الستائر، تتسارع أنفاسه، يشعر بفوران جسده وتصلبه، وإذ بعبيكه تدخل إلى حجرة الوصيفة، تتبادلان الكلام، تستدير عبيكه لتجلس على المقعد، تفك الوصيفة جدائل عبيكه وتبدأ في تصفيف شعرها الناعم المسدل حالك السواد الذي يصل حتى عجزها.

يومها بدت رغمًا عنه زفرة بلوغ الذروة؛ مما جعل عبيكه تنتبه وتصيح:

- مين؟ مين بره؟

لملم شاران نفسه بسرعة وقفز من الشرفة إلى حديقة القصر الخلفية، وجرى بأقصى سرعة على الرمال ليختبئ في مياه البحر.

لم يعلم شاران ما إذا كانت عبيكه قد تبينته في الظلام أم لا. ولكنه في اليوم التالي بدأ في التلصص عليها من شرفة غرفتها، فأدمنها.

*****

- ها.. اتفرجت على مين النهارده؟

صمت شاران ولم يرد على آلاي الذي استطرد:

- أنت فاكر إني مش عارف والا إيه؟ هههههه! يا واد ده أنا أبوك وعاجنك وخابزك، وأنت مش عاتق مَرَة في الحارة! هههه.

يبتسم شاران بينما يستطرد آلاي:

- هو بحري جاي إمتى؟

- قال لي إنه جاي بكرة.

فيصيح آلاي على هوديت:

- هوديت، بحري جاي بكرة؛ جهزي نفسك.

فترد عليه:

- حاضر.

*****

الدنيا قيالة، والشوارع تبدو خاوية في حارة الحمالين، تسير هوديت بخطوات ثابتة وهي تمسك بيد بحري، الذي أصبح يستطيع السير بمفرده بمساعدة الدعامات الخشبية المربوطة معًا بالحبال، والتي صنعها له سنوحي، متجهَين صوب بيت برعو. تشير هوديت لبحري برأسها، فيتقدم ويطرق باب البيت ليأتيها صوت برعو صارخًا:

- مين اللي بيخبط؟ حد بيجي في عز الضهر كده؟!

يفتح برعو باب البيت ليجد أمامه الأمير بحري والمرضعة هوديت.

- آسف جدًّا.. آسف جدًّا. اتفضل يا سيادة الأمير، تشرفنا.. تشرفنا. ادخلي يا هوديت، أهلًا وسهلًا.

يجلس الأمير وبرعو على كرسيين، بينما تُربع هوديت على الأرض في مواجهة برعو، فينحسر ثوبها عن فخذيها، يرتبك برعو الذي يجد نفسه في مواجهة صدر هوديت النافر فيلتفت هربًا لينظر إلى بحري وهو يقول:

- أهلًا وسهلًا بالأمير.

فتبادره هوديت:

- بص يا سي برعو.. أنا شقيت وتعبت لحد ما رضَّعت وكبَّرت وفطمت بحري. لكن من يوم ما اتفطم ورجع تاني القصر، وخلاص الشهرية انقطعت والست ماعادتش تيجي.. أنا كمان ضرعي خلاص مابقاش مليان زي زمان.

ينظر برعو إلى جسدها وصدرها، وتنتابه تلك المشاعر الشبقة التي راودته أول مرة يرى فيها هوديت وهي تحمل زلعة المياه على رأسها من الترعة لمنزلها، بصدرها البارز وجسدها المفرود.

يتنحنح برعو ويبلع ريقه محاولًا تهدئة مشاعره، ثم يقول:

- طاب وهو آلاي ما بيشتغلش؟

- تعب خلاص وكبر ومابقاش قادر لا يشيل ولا يحط، وأهو قاعد في البيت ولا بيخرج ولا بيدخل. والصراحة بقى هو اللي قال لي آجيلك

يمكن ينوبنا منك الخير، وأنا كمان قلت: فيها إيه؟ ما أنت كبيرنا، وطول عمرك حامينا وواخد بالك مننا، ومش حتتأخر عليا أبدًا.

ثم تستطرد وهي تقول لبحري:

- مش كده والا إيه يا بحري؟

فيرد بحري فورًا موجهًا كلامه لبرعو:

- ماما هوديت عايزة تشتغل.

- فين؟

فتبادره هوديت:

- عندك يا سي برعو.. ما هو أنا سمعت إن الست بتاعتك بقالها ييجي سنة غضبانة ومسافرة عند أهلها، وقلت في عقل بالي أكيد أنت محتاج اللي يساعدك في البيت.. وأنت أكيد عمرك ما مديت إيدك في شغل البيت. والا إيه؟

يفاجأ برعو بالطلب وبصراحة هوديت بينما تقتحمه حركات يديها وارتجاجات جسدها الذي يبدو له وكأنه قد احتل البيت بالكامل.

يتنحنح برعو ثانية ريثما يلتقط أنفاسه، ثم يقول:

- يعني.. أنتي لسه بتشتغلي عند الملكة، وأنا ما أقدرش..

- ما هو بحري حيستأذن الست.. مش كده يا بحري؟

فيهز بحري رأسه مؤكدًا، فتنظر هوديت لبرعو وهي تقول:

- ها؟ حنبتدي من إمتى؟

يصمت برعو الذي يشعر باقتحام هوديت لمنزله وحياته، بل ولجسده أيضًا، بينما تستطرد هوديت:

- ويا ريت لو تديني قرشين مقدم أخلص بيهم من آلاي وزنه.. وأنا من بكرة خلاص حابقى معاك، وحاجيلك كل يوم.

يقوم برعو إلى خزانته الموجودة في غرفة نومه، فتقوم هوديت لتتبعه وهي تشير لبحري كي يبقى مكانه. يلتفت برعو ليرى هوديت وقد اقتحمت مخدعه، فيرفع رأسه لينظر من فوق كتفيها إلى حيث يجلس بحري. تمد هوديت يدها لتضعها على خد برعو، وتجذبه برفق حتى تتلاقى أعينهما، يقترب وجهاهما وتبدأ هوديت في التهام شفتي برعو الذي يهمس لاهثًا:

- بحري بره.

تبتسم هوديت، ثم تمسك بيد برعو التي تحمل قطعة الذهب لتلثمها ببطء، فيشتعل جسد برعو في انتظار ما هو آت.

*****

تدخل هوديت منزلها، فيمد آلاي يده، فتعطيه القطعة الذهبية، فينظر إليها ثم يقول:

- هي دي اللي قدرتي عليها؟! هو الراجل ده حيطلع بخيل والا إيه؟

- باينه بس كان مكسوف من بحري.

يدخل عليهما شاران مبتسمًا، فيبادره آلاي:

- ها؟ عرفت مكان الدهب فين؟

فيرد شاران مبتسمًا:

- أيوه، في خزنة في أوضة النوم.

فيضحك آلاي هو يقول:

- جدع يا وله.. كل شهر كده والا اتنين تبقى تجيب لنا حتة.

ثم ينظر لبحري وهو يقول بضحكة ساخرة:

- جدع يا بحري.. جدع يا أمير.

عبيكه

"لماذا تركوني في هذا العالم العجيب؟".

"ولماذا لا يكلمني زوجي؟".

"أصبح لي اسم ملكي، ولكني لم أصبح ملكة. لماذا؟!".

تكبر عبيكه وتكبر معها الأسئلة. وما كان بالأمس وحشة وانفصالًا عن عالم تألفه، تحول مع مر الأيام إلى محاولة اكتشاف نفسها في عالم لم تكن تعرف عنه شيئًا، عالم يفصح عن نفسه يومًا بعد يوم ودرسًا بعد درس؛ فمع تعجبها لما تراه من بيوت ومبانٍ ضخمة فخمة، فهي أيضًا تعجب لما تسمعه من تحوت من أفكار وحواديت وقصص، وجود تحوت في حد ذاته أصبح يثير شغفها وفضولها بقدر كبير، فأصبحت لا تكتفي بالدروس اليومية، بل إنها تذهب أيضًا للمكتبة الكبرى لتقرأ وتتعلم وتسأل وتفهم.

وكلما اندمجت في عالمها الجديد، اندثر بداخلها عالم قديم يتحول يومًا بعد يوم إلى خيالات وأشباح..

لم يكن يربطها بعالمها القديم إلا الحارسان اللذان قدما معها وعيَّنهما جدها لحراستها ومرافقتها، رابطة لم تستمر إلا ثلاثة أشهر فقط، ثم قام

أوزير بإرسالهما إلى مملكة الرمال قبل أن يتسببا في كارثة. كم أفزعها ذلك اليوم وجعلها أكثر حرصًا وتخوفًا من ذلك العالم الجديد!

كانت الزهور تتفتح، وزعابيب الجو تنتهي فيصفو ويحنو بعد برد وتقلبات، وكان البنايين يجهزون لمقدم عيد الربيع، امتلأت الأسواق بالأسماك المملحة ذات الرائحة النفاذة، والتي تصنعها عدة بلدات متخصصة من أفخر أسماك النهر المقدس، كما امتلأت الأسواق بالليمون والبصل والملانة، وامتلأت الجرار بالجعة.

وفي يوم الاحتفال بالعيد توجهت العائلة الملكية بالكامل إلى النهر الكبير لتحتفل مع الشعب على ضفافه، انبهرت عبيكه الطفلة بهذا الزحام الكبير على ضفاف النهر؛ البنايين في أفخر ثيابهم يرقصون ويغنون ويشربون الجعة في بهجة شديدة، بينما تبحر المراكب بأشرعتها البيضاء الناصعة مخترقة النهر. وكما انبهرت عبيكه، انبهر الحارسان أيضًا؛ فهما لم يشاهدا نساء يرقصن على الملأ هكذا من قبل، ولم يستمعا إلى مثل هذه الموسيقى، ولم يشاهدا هذا الكم من الفرح والبهجة. ومع اندماج الحارسين وابتعادهما عن الموكب الملكي، ابتعدت معهما عبيكه التي بدأت رويدًا رويدًا تندمج في اللعب والرقص مع من يماثلونها في العمر من شعب البنايين. استهوى الحارسين لعبة التحطيب وبدآ في الاندماج مع اللاعبين الآخرين الذين رحبوا بالوافدين الأغراب وقدموا لهم الأكل والشراب.

مع استمرار تجرع الجعة، خف رأسا الحارسين وامتلأت بطناهما، فأسرعا ليقضيا حاجتهما في النهر.. فجأة انقلب البنايين من حالة البهجة إلى

الفزع ثم الغضب، فالهجوم بالشوم على الحارسين اللذين فزعا وأخذا علقة موت لم ينقذهما منها إلا صراخ عبيكه.

"دول حراسي.. دول حراسي.. أنا الملكة.. أنا نفرت.. أنا الملكة نفرت".

وكانت هذه هي أول مرة يشاهد فيها البنايين الملكة الطفلة القادمة من مملكة الرمال.

يومها قرر أوزير عدم إمكانية استمرار الحارسين؛ ففضلًا عن عدم احتياج الملكة لهما لوجود حرس القصر وحرس الملك، فلقد فقد الحارسان هيبتهما تمامًا وأصبحا لا يصلحان لحراسة أحد.

*****

"أنا لم ألوث ماء النهر".

هكذا استهل تحوت درس الصباح، ثم استطرد:

- طبعًا كلنا دلوقت عارفين القوانين الأساسية اللي بتحكم حياة البنايين. والحقيقة أنا بأشوف إن "أنا لم ألوث ماء النهر" هو مش بس أجمل قانون من قوانين الحياة، لكن كمان هو أكتر واحد بيعبر عن جوهر الفكرة الأساسية اللي البنايين بنوا حضارتهم عليها. القوانين التانية زي "أنا لم أقتل" أو "أنا لم أسرق" بتظبط المجتمع وعلاقات الناس ببعض. لكن "أنا لم ألوث ماء النهر" بيظبط علاقة الناس بالكون كله

بكل اللي فيه؛ علاقتك بالنهر هي علاقتك بالزرع اللي النهر رواه، وبالحيوانات اللي بتشرب منه وبتعيش فيه، وبالناس التانية اللي عايزين يستعملوا النهر من بعدك ويلاقوه زي ما الخالق عمله، نضيف وطاهر. إحنا بنبجل النهر لأننا بنقدس خالق النهر، ولأننا بنشوف إن النهر والبحر والشجر والكون كله عبارة عن تجليات وصور للخالق وإبداعه وقدرته ونعمته اللي بيديهالنا كل يوم مع كل شروق؛ فأقل حاجة نعملها إننا نبجل خلق الله من شجر وبشر وحجر، وكمان... لو إننا لوثنا النهر، أمواجه حترجَّع لينا التلوث، فنعيَى ويمكن نهلك.. نموت.

- هو مين اللي عمل القوانين دي؟ الملك؟

تسأل نفرت، فيأتيها رد تحوت:

- ضمير الناس هو أصل كل القوانين، ضمير الناس هو أصل انتظام الحياة، وهو كمان أصل الفوضى المدمرة؛ لو الضمير نقي ومنور بنور الخالق حتبقى القوانين اللي طالعة من الضمير ده برضه نقية ومنوره، ممكن الملك يقعد يفكر ويعمل قوانين جميلة، لكن لو ضمير الناس ضِلِم وغشيم حيحول القوانين في التعامل لسيف غبي وجاهل بيقطع بس مابيوصلش. علشان كده كل قوانين البنايين بتبتدي منهم، من ضميرهم، من جواهم، مش من أوامر الملك.

- طاب مش لو هي أوامر الملك كانت الناس خافت وما عملتش حاجة ضد القوانين؟

- لو ضميرك ما بيظبطش تصرفاتك ويحاسبك عليها، ولا أجدع ملك يقدر يعمل حاجة. وبعدين لو الملك هو أصل القوانين، يبقى يقدر يغيرها على مزاجه و ولا حد يقدر يحاسبه.

فيبادر حور:

- وإيه قيمة الملك اللي بيحكم الناس بالخوف؟

يبتسم تحوت:

- آه. يعني الاختيار هنا يبقى الخوف من الملك والا تحكيم الضمير.

يصمت تحوت برهة ثم يستطرد وكأنه يكلم نفسه:

- الخوف والا الضمير.. ده محتاج درس تاني بقى..

بعد رحيل الحارسين جاءت أم عبيكه عامًا بعد عام لتقضي مع ابنتها شهرًا تضمن فيه سلامتها واستمرار تواصلها مع جذورها وأرضها، وعامًا بعد عام كانت نفرت تنسلخ من فكر الرمال لتصبح من البنايين. بعد خمس سنوات من الزيارات وجدت الأم نفسها غريبة عن نفرت، فانقطعت عن الزيارات؛ فلم يعد هناك شيء يجمعهما، حتى لغة نفرت تغيرت ولم يعد التفاهم يسيرًا. عامًا بعد عام أصبحت تقترب أكثر فأكثر من نموذج الست الذي أصبحت نفرت تستشرفه وتغار منه في نفس الوقت.

ولم يكن هناك أغرب من المكتبة الكبرى؛ كم انبهرت بأول زيارة! وأول مرة ترى فيها كتب البردي الملفوفة، والتي يتداولها تحوت بحرص

وعناية واهتمام، تقترب عبيكه فلا ترى في الورق إلا طلاسم صور وكتابات لا تفهم معناها، بينما يقرأها حور بكل بساطة.

- إيه المكتوب هنا؟

- دي أساطيرنا، أساطير البنايين.

- ودي؟

- تاريخ أجدادنا. ودي مسائل في الحساب. ودي عمليات في الطب.

- أنا أول مرة أشوف حاجة زي دي.

- أنتي الملكة، ومهم قوي إنك تتعلمي.

- طاب ممكن تعلمني؟

- أنا وتحوت حنعلمك كل حاجة.. ما تخافيش.

مع تعلمها القراءة والكتابة، ومع كل كتاب قرأته، كان يقل الخوف ويزداد التعلق بالعالم الجديد، عالم رحب لا تحده قيود، عالم تفتح فيه الأساطير الباب للخيال؛ فها هو الخير يحارب الشر، وها هو الشر يخادع ويتخفى محاولًا القضاء على الخير، فيصبح خنزيرًا تارة، ويصبح تمساحًا تارة أخرى، والخير في قوة ثور وذكاء ملك وجناحي نسر. كم تخيلت أوزير بطلًا للأساطير، ولم ترَ البطلة إلا في الست! ولكن تظل الأنثى.. أنثى.

هكذا خُلقت وهكذا ستكون.. أنثى.. لبؤة.. تطغى عليها غرائزها وإحساسها الطاغي بذاتها كامرأة، ذلك الإحساس الذي يضع الست دومًا في خانة المنافس، ليس على قلب زوجها وجسده فقط، بل وعلى روحه أيضًا.

وكما كان يساعدها حور في تعلم الكتابة، بدأ أيضًا في مساعدتها لتعلم فنون القتال؛ "فالحرب آتية بلا ريب، ويجب أن أكون مع أوزير كتفًا بكتف في المعركة".

*****

كانت تعلم أن هناك متلصصًا. في أول الأمر فرحت؛ فهناك من يراها أنثى، وها هي تتباطأ في خلع ملابسها، وتتباطأ أكثر في ارتدائها، تضع المزيد من العطر حتى تصله رائحتها، تنحني وتتمدد وتنفرد وتنثني حتى تسمع زفرات شهوته وشهقة ارتياحه، حتى جاء يوم الاحتفال بفيضان النهر المقدس.

جلست العائلة الملكية كلها في المركب الملكي، ومعهم الراقصات العازفات وتحوت وسنوحي. وبينما أخذ حور مكانه كولي للعهد، أخذ بحري مكانه كأمير من الشعب. كان هذا أسعد الاحتفالات وأقربها إلى قلب أوزير، الذي كان الخير هو أحد أهم ألقابه، فكم تمنى أن يكون عهده رمزًا للنماء والخضرة والخصوبة!

بين الموسيقى والرقص كان تحوت يتحدث عن حواديت الأساطير ومعانيها وفلسفتها، بينما كان سنوحي يحكي عن أسفاره ورحلاته ومهامه

الملكية الخاصة التي كادت أن تودي بحياته أكثر من مرة. كان أوزير سعيدًا ومبتهجًا، قويًّا كالعادة وإن كان الشيب قد بدأ يزحف، مرحًا متلطفًا أكثر من المعتاد، ربما من ازدياد معدل الفيضان، ربما من الجعة وحرارة الشمس، ربما من اختفاء شبح الحروب تمامًا والازدهار الشديد الذي عم المملكة. وكانت نفرت أيضًا سعيدة؛ فها هي تتحول يومًا بعد يوم إلى ملكة ومقاتلة.. وأنثى، شربت الخلق والتصرفات الملكية من الست، بينما يمتلئ عقلها بعلم تحوت وكتب البنايين، ويزداد جسدها قوة بتدريبات حور القتالية، وجمالًا بنصائح الوصيفات واهتمامهن بها.

يتمايل المركب الملكي وهو يمخر عباب النهر العظيم، يقف الفلاحون يلوحون لأوزير وموكبه، ومن ورائهم أرضهم العامرة بالخير والخضار، بينما الفلاحات يزغردن بقدوم الموكب ويُشرن له بالنزول عندهن. الأطفال وبعض الشباب يسبحون بسرعة للاقتراب من الموكب؛ علَّهم يستطيعون رؤية الملك وعائلته. انتقلت عدوى السعادة بالفيضان من النهر للملك للشعب، فانعكست السعادة على الكون بأكمله.

وبدأت العازفات في اللعب مرة ثانية. لطالما شعرت نفرت أن للهارْب صوتًا سماويًّا، ووجدت لذلك تفسيرًا لم تفصح به لأحد من قبل قط؛ فهو الآلة الوحيدة التي تشير أوتارها للسماء وكأنها تتجه بعزفها للخالق، ترنو إليه فيغمرها بصوت سماوي رنان يتردد صداه في الفضاء وفي أفئدة السامعين. تتمايل نفرت مع أنغام الهارْب، فتدعوها الراقصات لتنضم إليهن، فتقوم وتبدأ في الرقص. ولأول مرة ينتبه أوزير أن هناك أنثى أخرى في قصره. كم انتظرت الست تلك النظرة! كم كانت متأكدة

أنها آتية ولا ريب! فها قد أتى خراط البنات، وها قد أصبحت أنثى فتية طازجة، وها هو أوزير يشعر برجولته تتحرك تجاهها، وها هي نفرت تلحظ نظرة أوزير لها فتغمرها سعادة طاغية تدفعها للرقص بكل مشاعرها وبأجمل ما تعلمت من فنون، كأنها ترقص له وحده.

ليلتها لم يكن هناك مجال لمتلصص؛ فما إن شعرت نفرت بحركة غريبة حتى توجهت ناحية شرفتها وهي تصيح:

- يا حراس.. يا حراس.

يقفز شاران ويجري هاربًا في حديقة القصر، بينما يعدو أحد الحراس منتبهًا على صوت الملكة، فيرى ذلك الشبح القافز من شرفة الملكة الصغيرة، فيشرع في مطاردته.

*****

سمع الملك أخبار التعدي على الملكة بانزعاج؛ فلم يجرؤ أحد من قبل قط على اقتحام قصر الملك، فضلًا عن اجترائه على الملكة.

- مين الشخص القذر ده؟

تصمت الست، ثم ترد بابتسامة مصطنعة، فيبادرها أوزير بصوت متردد:

- أعتقد إني لازم أرُوح أطمن عليها.

تتقدم الست من أوزير لتُقبل جبهته؛ يزفر بارتياح ويذهب ليرى نفرت، بينما تنساب الدموع من عين الست من غير صوت.

يمشي الملك في الحديقة ليرى الجثة الممددة على الأرض، والتي يلتف حولها الحرس وبعض الوصيفات، بينما يطلق قائد الحرس أوامره هنا وهناك. يزم الملك شفتيه، ويمضي ليذهب إلى جناح الملكة.

كانت تراهن نفسها وتتمنى ألا تخسر، وها قد كسبت الرهان، وها قد جاء إليها ملكها وزوجها. هذا هو وقع خطواته يقترب، وها هي تعطي ظهرها للباب لتسمع صوته.

- إزيك يا نفرت؟

انتفض جسدها وكأنها تسمع لقبها الملكي لأول مرة، استدارت ببطء وابتسامة شكر ورضا على وجهها.

- سيدي.

- إيه اللي حصل؟

- متلصص حقير.

- عمرها ما حصلت في القصر.

- ولا دي أخلاق البنايين.

- تحوت بيقول إن أخلاق البنايين ابتدت تتغير بوصول...

يقطع أوزير كلامه، فتكمل نفرت:

- فعلًا بعض الأفكار ابتدت تتغير، واتغيرت معاها الأخلاق.

تنطلق من أوزير ضحكة مجلجلة، ويقول:

- بقيتي بتتكلمي زي تحوت بالظبط.

- تحوت أستاذي اللي عينه سيدي علشان يعلمني الكتابة والحكمة.

- حور كمان واخد باله منك.

- صاحبي وأخويا.. واضح إن سيدي لسه مش شايفني جزء من المملكة ولا واحدة من البنايين.

يُصدم أوزير بالفكرة التي لم تخطر على باله من قبل قط، فهو حتى ساعات قليلة لم يرَ في نفرت إلا تلك الطفلة الآتية من مملكة الرمال، والتي تعيش في القصر كجزء من صفقة سلام ليس إلا، وها هو الآن يرى أمامه أنثى ناضجة عقلًا وجسدًا.

- كنت فاكر إنك مش حتقدري تتغيري.

تضحك نفرت:

- الظاهر كمان إنك ما تخيلتش إني حأكبر.

ثم تنظر إليه بعينيها السوداوين الواسعتين، وتستطرد:

- أنا اخترت أبقى من البنايين، مش بس علشان أنا زوجة ملك البنايين، لكن علشان عشقت كل حاجة فيهم، أفكارهم.. كتبهم.. خفة دمهم.. أغانيهم.. مبانيهم. مين يبقى عايش في قلب كل ده وما يعشقوش؟

- فيه ناس عايشين فيه وما بتشوفوش من الأصل.

- أنا فتحت.. وشفت.

يبتسم أوزير ويلتفت ليخرج، فتضع نفرت يدها على ساعده وتقول:

- يا ريت كمان سيدي يشوفني زي ما أنا شايفاه.

وكأنه يرى عينيها السوداوين الواسعتين لأول مرة، تقترب منه خطوة، يكاد صدرها النافر يلامس صدره الذي تتسارع حركته، ترفع يدها لتضعها على وجهه في دعوة للاقتراب أكثر فأكثر، يمد يده اليسرى ليطوقها، فتشهق وهي تشب بقدميها لترتفع حتى يلامس وجهها وجهه. يلثم شفتيها فتغمض، يحملها فتنكمش في صدره كالطفل، يضعها في الفراش ويغرق معها في قبلة طويلة، ثم يقوم ليطفئ شموع الغرفة ببطء، ولا يترك إلا شمعة واحدة؛ فكم يتوق إلى رؤيتها عارية بين يديه!

*****

بحري

"أنا مين؟ من أنا؟".

يصرخ السؤال في صدره حتى يكاد أن يكون مسموعًا..

"أمير من البنايين والا واحد من الشرقيين؟ أبويا الملك العظيم أوزير والا آلاي اللي بيتحايل على الحياة علشان يعيش؟ أمي الست الملكة المبجلة والا هوديت المرضعة رفيقة برعو؟ أنا مين؟ من أنا؟".

ينزل سلالم القصر جريًا، تكاد دعامات قدمه الخشبية تتحطم من عنف حركته وعصبيته، يقفز إلى داخل عربته الملكية وينطلق إلى حارة الحمالين بينما تضربه الأفكار:

"ماذا أفعل في ذلك القصر؟ آكل.. أشرب.. أتعلم.. لماذا؟ وما فائدة كل ذلك إذا لم أكن أميرًا فعليًا؟! لماذا لا أستطيع أن أكون وليًا للعهد ولا قائدًا للجيش ولا حتى قائد الحرس الملكي؟! لماذا لا أستطيع أن أتزوج من الأميرات؟! ولمَ تتجنبني الوصيفات؟! ولماذا لا يهتفون باسمي في الموكب الملكي؟! حور أحسن مني في إيه؟! ألأني أعرج؟ ألأني أعرج؟".

"وليه ربوني في القصر؟ علشان بس يتباهوا بسماحتهم؟! أهو واحد أعرج من الشرقيين ربيناه وعلمناه وكبرناه زي أي أمير، وأعظم كمان من أي أمير، ده زي ولي العهد، لأ.. لأ.. لن أسمح لهم بهذا أبدًا".

ينطلق بالعربة بأقصى سرعة، فيهرب الناس منه في الطرقات، وهو منطلق لا يبالي.

يقف أمام حارة الحمالين، وينزل متوجهًا لبيت هوديت وآلاي:

"هذا هو منزلي.. هنا كنت فعلًا أميرًا.. الكل في خدمتي.. الكل يعرف علو منزلتي.. والكل أهلي.. أعرف أسرارهم ويحفظون أسراري، تتمنى بناتهم كلمة مني، ويتمنى أعظمهم نول رضاي".

- بحري.. بحري.. أغثني يا أخي.. أغثني.

ينظر بحري ليجد برعو بقامته الضخمة ممسكًا بتلابيب شاران.

- مش حأسيبك.. مش حأسيبك.

و شاران يصرخ:

- الحقني يا بحري، أغثني، أغثني.

يتقدم بحري بكل عزم ناحية برعو، يُخرج خنجره ويطعن برعو بكل عنف وغل وقسوة. يسقط برعو على الأرض، فيبرك بحري فوقه ويستمر في طعنه عدة مرات حتى يصبح جثة هامدة، فيصيح به شاران وهو يجذبه:

- قتلته.. خلاص قتلته، خلاص.

ينتبه بحري لدم برعو النازف المتدفق وهو يغمره بالكامل، وعلى صوت شاران وهو يصرخ ليُسمع الحارة بأكملها:

- بحري قتل برعو.. بحري قتل برعو.

ينظر بحري إلى شاران، يأخذ نفسًا عميقًا ليحاول أن يهدأ، ثم يسأل بصوت تائه:

- هو كان ماسك في خناقك ليه؟

فينظر إليه شاران مبتسمًا، ثم يقترب منه ليقول هامسًا في أذن بحري:

- عرف إني أنا اللي قتلت الحارس.

- أنت المتلصص؟

- أيوه.. ودلوقت الأمير بحري بقى شريكي.

يبتعد شاران عن بحري، ويعاود الصياح في أهل الحارة الذين تجمعوا على صياحه وعلى جسد برعو المسجى على الأرض.

- الأمير بحري قتل برعو.. الأمير بحري قتل برعو.

يقوم بحري متخبطًا في أهل الحارة، ثم يجري ليقفز في عربته الملكية ويهرب.

*****

الفصل الثاني

الرحلة

- أنتي مسافرة؟

ينظر تحوت إلى سيشات وهي تضع ملابسها في حقيبة ضخمة توحي برحلة طويلة.

- أيوه.. عايزة ألّف أرض البنايين كلها.

فيرد تحوت متعجبًا:

- كلها في رحلة واحدة؟!

فتضحك سيشات قائلة:

- أيوه.. عايزة أسجل كل حاجة البنايين في كتاب واحد، الناس وعاداتهم، أكلهم وشربهم، ضحكهم وأغانيهم ورقصهم، معتقداتهم وزرعهم، أنواع الشجر وأنواع الحيوان.

فيقاطعها تحوت:

- دي رحلة تاخد سنين.

- دي حلم حياتي.. نفسي أسيب حاجة للجايين.

يبتسم تحوت وهو يحتضن سيشات، ويقول:

- أنا كمان مسافر مع حور في رحلة طويلة.

- رحلة الحكم؟

- أيوه. ههه. وبرضه حتاخد سنين.

*****

- بقى لنا قد إيه في الرحلة دي؟

يتساءل تحوت موجهًا كلامه لحور:

- سنين.

- هههههه وفاضل لنا قد إيه؟

- سنين برضه. هههههه أنت بتمتحني؟

- لا، أنت خلاص كبرت على الامتحانات والكلام ده. سنة والا اتنين بالكتير وحتبقى الملك، وتتسلم الحكم من أبوك العظيم أوزير.

كم كانت الرحلة مبهجة على قلب حور! فها هو يعبر المملكة من أقصاها إلى أقصاها؛ ليعرف الشعب وليتعرف عليه شعبه، يرى الفلاحين ومدنهم وقراهم عن قرب، يعيش معهم ويتنقل بينهم في مراكبهم التي تمخر عباب النهر المقدس العظيم. لقد عبروا الشلالات الكبرى واحدًا تلو الآخر، ولم يبقَ لهم إلا الوصول إلى الحصن الكبير القائم على منبع النهر، مصدر الرزق والحياة. بعدها سيعودون برًّا ليزوروا حصون المملكة الموزعة على حدودها المترامية الأطراف. وحال الوصول إلى العاصمة سيتم تنصيب حور ملكًا.

*****

- ليه أخدت القرار ده؟

ترتسم ابتسامة خفيفة على وجه أوزير وهو يقول لحور:

- تعبت.. خلاص ما بقاش عندي الهمة اللي محتاجاها مملكة البنايين.. بقيت حاسس إني شخت، وإن المملكة بتشيخ معايا.

- أنت عملت الرحلة دي؟

- طبعًا.. أنا وجدك وجد جدك.. كلنا لفينا البلد حتة حتة. قبل ما تبقى ملك البنايين، لازم تعرفهم وتبقى منهم وليهم، تشوف عرقهم اللي نازل من إيديهم لإيد الفاس لطين الأرض اللي بتطرح خير، تشوف كتافهم وهي شايلة قصعة البنا والغنا ما بينقطعش، غنا طالع من قلوبهم قبل ما يطلع على لسانهم، تشوف الشجر والحجر والقلاع، وتملي عينك من النهر المقدس، تشوف الصحاري وهي محوطة الخضار وكأنها محاصراه، تشوف بيوت الطين وصروح الحجر، وتتعلم في بيوت الحياة.

- تفتكر حاكون ملك عظيم زيك كده؟

- مش مهم تكون عظيم.. صدقني.. هههه طبعًا وأنا صغير كنت بأفرح قوي باحتفالات النصر وهتاف الشعب، ونظرات الأميرات، وحتى نظرات الفاتنات السمر من عامة الشعب المعجبات بالملك العظيم. لكن لما كبرت فهمت إن عظمة الملك الحقيقية مش في انتصاراته وقوته، لكن في قدرته على تطبيق الحق والعدل ولو على نفسه.

- بتحب أنت البنات السمر، مش كده؟ هههههه.

- أبوك بيحب الشعب كله.. بكل ما فيه هههههههه.

- علشان كده حتجوزني إياح حتب.

- البت سمرا وزي القمر، وأبوها قائد جيشي.

- ما أقدرش أقول حاجة، أنا قصدي علشان هي من عامة الشعب.

- أيوه.. لازم تبقى أنت وشعبك حاجة واحدة، لازم واحدة واحدة فكرة الدم الملكي تتغير.

- أنت اتغيرت قوي. أنت عارف تحوت قلقان من تغيرك ده قد إيه؟

- طبعًا عارف. بس مش متأكد إذا كان التغير ده تخاريف عجز ولا تخاريف حكمة هههههههه.

- لسه زعلان من فراق بحري؟

يباغته السؤال فيصمت برهة، يرنو بنظره إلى السماء، ثم ينظر إلى حور ويفضفض:

- تعرف بحري ده كان بالنسبة لنا إيه؟ مش بس حسينا إنه تعويض من الخالق، لكن حسينا فعلًا إنه ابننا زيك بالظبط، كنت بألاعبه وأضمه يمكن أكتر ممَّا كنت بأعمل معاك.

يصمت أوزير لبرهة وكأنه يستعيد الذكريات، ثم يستطرد:

- يمكن كمان تعب رجله كان بيخلينا نهتم بيه أكتر، كان نفسنا يكون فعلًا أخوك وسندك، ماكنتش أتخيل إنه حييجي عليه يوم يتحول فيه لقاتل هارب من العدالة.

- يعني لو رجع ممكن تسامحه؟

- كأب؛ طبعًا، وحأحاول أقنع أهل برعو يسامحوه، يمكن ده يخفف عليه الحكم.... هههههه.. شُفت أنا كبرت ومابقيتش أنفع أبقى ملك إزاي؟! أول حاجة عملتها إني حكّمت قلبي مش عقلي! عمال أقول لك الحق والعدل وبتاع، وبعدين مشاعري غلبتني! هههههه..... روح لف المملكة وارجع.. حتبقى أجدع ملك في الدنيا.

*****

كانت الشمس عمودية على النهر، تشع بضوئها الساطع فينعكس كالفضة على صفحة المياه العذبة المشبعة بالطمي. توقفت المركبة الملكية أمام مرسى المراكب الشراعية، نزل حور وتحوت وتوجها إلى مركب الريس بتاح، الذي بادر تحوت بالتحية صائحًا وهو يعبر السقالة الممتدة من المركب للشط:

- أهلًا بالغالي.

ثم احتضن حور وهو يقول:

- أهلًا بالغالي ابن الغالي.

سر حور من حميمية اللقاء، ثم عبر السقالة مع تحوت ليجد المركب محملًا عن آخره بالبلاليص الواردة من الجنوب.

- ده الخن بتاعك، وده الخن بتاع عمك تحوت.

فتح الريس بتاح بابًا خشبيًّا صغيرًا يفتح على حجرة خشبية بقاع المركب، تتسع بالكاد لشخص واحد ينام فيها ضامًّا رجليه إلى صدره كالطفل.

وقبل أن ينزل حور إلى الخن ليستكشفه، ارتفع صياح الحمالين وهم ينزلون من على السقالة، على بتاح الذي لوح لهم ثم قال لحور:

- تعالَ.

كوَّن الحمالون سلسلة بشرية، أولها عند العربة التي ستحمل البلاليص للسوق، وآخرها عند مركب الريس بتاح الذي خلع جلابيته وبدأ في رمي الزلع والبلاليص لحور، الذي يرميها بدوره للحمال الواقف على أول السقالة، حتى تستقر البلاليص على العربة. ومع رمي البلاليص، بدأ الريس بتاح في الغناء والحمالون يردون عليه.

ارتبك حور في أول الأمر؛ فلم يكن يعرف كيف يلقف البلاليص وكيف يقذفها، ممَّا أثار ضحك بتاح والحمالين وابتسام تحوت. على ربع الحمولة أتقن حور العمل، واشتدت حرارة الشمس؛ فخلع غطاء الشعر الملكي وانهمك في اللقف والقذف والغناء. على نص الحمولة توقف الريس بتاح عن العمل، وتجمع كل الحمالين على المركب في دائرة صغيرة، أخرج الريس بتاح قطعًا من الجبن القديم وبعض الأرغفة من العيش الشمسي، دش أحد الحمالين بَصَلة، وانهمك الجميع في الأكل الذي تخلله أحاديث جانبية ضاحكة.

مع انتهاء تحميل البلاليص على العربة، تحولت الشمس إلى اللون الأحمر الذي انعكس على صفحة المياه وعلى أوراق الشجر. حيّا الحمالون الريس بتاح وانصرفوا، بينما جسد حور يضخ عرقًا وقد نفرت عروقه وأُنهكت عضلاته. التفت حور ليجد ابتسامة عريضة على وجه تحوت، الذي توجه إلى الخُن ليرتاح قليلًا، بينما نزل الريس بتاح من المركب ليشتري مؤن الرحلة الطويلة من شمال المملكة لجنوبها.

فتح حور طاقة الخن ليجد فوق حقيبة ملابسه جلابية كالتي يرتديها الريس بتاح، فتوقف برهة ثم خلع ملابسه الملكية وقفز في النهر.

شعر حور بقوة النهر، فترك نفسه لينجرف مع ذلك التيار القوي المندفع من جنوب المملكة إلى شمالها حاملًا الخير والخصب والازدهار.

*****

غابت الشمس وبسط القمر نوره على النهر، فرد بتاح الشراع الأبيض وأمسك بالدفة ليبدأ في الإبحار جنوبًا على ضي القمر. جلس حور بجوار تحوت في مقدمة المركب، بينما ارتفع صوت بتاح الأجش الجميل ليغني:

يااااا يا ليل

جابلتني موجة

أنا وروحت ليها

جابلتني موجة

أنا وروحت ليها

هبت رياح
وملتلي العين.. العين
لا أنا لاجي صخرة
أوجف عليها
لا لاجي صخرة
أوجف عليها
ولا أنا طايل البر فين.. فين
فين.. فين.. فين
صحي الموج يا حرام
وغرجت السفينة
جابلتني موجة
أنا وروحت ليها
لما غمن الجلب قهرتني شبيه بالنار
سحرتني شبيه بالنار
والوجت جاير ومش داري ظلام من نار
ليكي حكم جبار وجرسك شبيه للتنين
روحك ولا نفسك اللي كانت بادية
روحك ولا نفسك اللي كانت بادية

روحك ولا نفسك اللي كانت بادية
ما تعلمش يمكن بالمجادير الخافية
ما تعلمش يمكن بالمجادير الخافية
وتجول ما تجول
وتجول ما تجول
أفكارك هادية
السفينة يا بني
على البر أهي راسية
جابلتني موجة
أنا وروحت ليها

*****

مع ضوء الفجر صحا حور على حركة المركب، فقام وفتح باب الخن لتصدم عينيه أشعة الشمس العفية، رفع رأسه للسماء الزرقاء الصافية.

- نمت كويس؟

- زي الفل يا ريس بتاح.

- طاب ياللا يا بطل تعالى علشان أعلمك إزاي تبحر وإزاي تجبّل. تعرف تفرد الشراع؟

طلع حور من الخن مرتديًا جلابيته الجديدة، وانهمك في معاونة الريس بتاح:

- إحنا حنوصل الشلال الأول إمتى؟

- لو الريح مساعدة ممكن خمستاشر.. عشرين يوم. لو اتشطرت على ما نوصل تكون بجيت ريس كد الدنيا.

- أنا عايز أتعلم أطلع الصاري.

- هههه ماخايفش؟

- هههه لع.

- هههههه.

ينتبه حور لتحوت الذي يجلس متأملًا مقدمة المركب وهو يشق صفحة المياه، فيدرك أن هذا وقت التأمل الصباحي لتحوت، فيتوقف عن الكلام ويبدأ في محاولاته للصعود على الصاري.

- امسك كويس بايديك ورجليك. وإياك تجع.

يتهبد حور وهو يقع من على الصاري، بينما ترتفع ضحكات الريس بتاح.

- يا ددع امسك كويس! هههه.

يقع حور من على الصاري صارخًا:

- آاااااه.

- برجليك.. أيون، لف جدمك ع الصاري، حاسب يا ولد.

- آاااه.

- هههههه. طاب كفاك، وبطل معاندة.

ولا يزال حور يحاول ويسقط.

- آاااه.

يخرج تحوت عن تأملاته ويبدأ في مشاهدة محاولات حور، فيبتسم ثم يضحك ثم يستلقي على قفاه من الضحك، وحور مصر يحاول صعود الصاري بلا جدوى.

- كفاك.. كفاك.. كمل بكرة.

يزعق الريس بتاح، فيترك حور الصاري ممسكًا بأسفل ظهره ليتوجه ناحية تحوت.

- صعبة قوي الحكاية دي! أنا ضهري اتفشفش.

- هههه. مافيش أصعب من حُكم البنايين.

- لازم تفكّرني؟!

- ولازم دايمًا تفتكر إن أي بحار من البنايين يقدر يعمل اللي أنت ماتقدرش تعمله.

- يعني إيه؟

- يعني كل واحد بيعمل دور في البلد دي، وأنت بتعمل دورك زيك زي أي واحد.

تنهد حور وكأنه تذكر حمله الثقيل:

- بس دوري صعب قوي.

- كل واحد شايف دوره صعب. لكن لو اشتغلنا سوا، حتبقى الحكاية أسهل كتير.

فيتساءل حور ويرد على نفسه غير منتظر لرد:

- وأنا دوري إيه؟ الملك اللي شايل الميزان؟

يلتفت تحوت لينظر إلى حور بجدية قائلًا:

- أنت الميزان، ما عندكش اختيار تميل أو ما تشيلش. أول ما تبقى ملك حتبقى على طول عدل ورحمة، مش بس بتوزن أعمال الناس، لكن بتضمن كمان تبادلهم للمنافع بالحق. ده قدرك كملك؛ إنك تبقى الضامن لتناغم الشعب مع بعض ومع الكون. قوم إيه؟

فيرد حور كما كان يردد صغيرًا:

- هههه. قوم الكون يرد علينا بالخير والنور والحب والازدهار.

- ددع يا ولد.

يضحك حور بينما يبتسم تحوت، ويرد بصره مرة أخرى ناحية صفحة الماء متأملًا.

*****

تعلم حور كيف يبحر وكيف يجبّل،

كيف يرى جزر النهر الغاطسة معتمدًا على انعكاس شعاع الشمس على المياه،

كيف يرص البلاليص من غير ما تنكسر، وكيف يقذفها وكيف يتلقفها.

رأى شروق الشمس وغروبها على صفحة النهر.

سبح مع التماسيح وأفراس النهر.

رأى الفيضان هادرًا، وشرب من الماء رقراقًا طاهرًا.

أخذ بعنفوان النهر ورقته وعذوبته.

عشق التحطيب الذي تعلمه على يد الريس بتاح، ومارسه في ساحات القرى.

فُتن برقص الغوازي وعاش في مضارب الغجر.

حلق رأس شعره وتطهر وهو يدخل البرابي متضرعًا للخالق.

تمرغ في الوحل والتراب وهو يتعلم المصارعة مع أولاد الفلاحين.

غنى مع البنائين وهو يحمل القصعة على كتفه.

رقص في موالد الصالحين المتصلين بنور الخالق، وحلق مع السابحين في عظمة الملكوت.

وسحرته نفرتاري...

كانوا قد وصلوا إلى أرض كوش، حيث الشمس تزيد الشعب سمارًا فوق سمار، وقد دعاهم شيخ البلد لتناول طعام الغداء معه.

وها هي نفرتاري تدخل بقامتها الهيفاء وجسدها الملفوف ووجهها الأسمر الآبنوسي، ضاحكة السن، ذات عينين سوداوين جريئتين تنشران اللهيب في المكان.

مال حور إلى بتاح هامسًا:

- مين دي؟

- تفرِج معاك إيه؟

- دي جميلة قوي.

فيرد بتاح محذرًا:

- وعيونها دباحة.

- ....

- تحب تتجوزها؟ حتضمن ولاء الكوش لو اتجوزتها. والا رأيك إيه يا عم تحوت؟

يضحك تحوت بصوت مسموع وهو يقول:

- اللي خلف ما ماتش. هههههه. أبوك كمان كان بيعشق الآبنوس، لكن ماقدرش يتجوز على الست أبدًا. حبه ليها كان طاغي، لكن أهو دار الزمن واضطر يتجوز عبيكه.

ليلتها عاد حور إلى المركب قرب الفجر، وجلس منتشيًا يتأمل انعكاس ضياء القمر على صفحة النهر، ثم بدأ يدندن ثم يرفع صوته بالغناء:

يا لون الآبنوس يا ابتسامة العاج

جتيلك في الغرام مشتاج

يا لون الآبنوس يا شفايف الشهد

آكل شفايفك والا يغير النهد؟

يا لون الآبنوس يا اللي جاتلاني

عاشج أنا والحسن خلاني

أفوت روحي وخلاني

وخلاني.....

يا لون الآبنوس

*****

مع شروق الشمس خلع حور ملابسه وقفز في النهر، غمرت المياه جسده فأغمض عينيه ليشعر بمياه النهر الباردة وهي تتخلل روحه وتغسل نفسه فيستسلم للسكون والسكينة.

بعد برهة، فتح حور عينيه في عين الشمس وكأنه يراها تشرق لأول مرة.

الكهف

كم مرة جاء إلى هذه الصحراء القاحلة؟ لا يذكر عدد المرات، لكنه يذكر جيدًا موكبه الملكي المرافق الذي كان يترأسه سنوحي كبير الجراحين الملكيين ورسول الملك المقرب.

وقتها كان يدخل الصحراء أميرًا مبجلًا، وها هو يحل عليها الآن قاتلًا هاربًا. بحري يعلم جيدًا أنه حتى لو كان أميرًا فسوف يخضع للمحاكمة، وقتل إنسان عقوبته القتل، فضلًا عن كونه الآن قد أصبح أيضًا مدافعًا عن متلصص قاتل اقتحم مخدع الملكة وقتل أحد حراس القصر.

"ترى هل وصل الخبر للحصون المنتشرة على الطريق؟ هل وصلت إليهم الأوامر ليقبضوا عليَّ؟ آه! كل ما أتوق إليه الآن هو جرعة ماء.. الشمس حارقة، والرمال تزفر لهيبًا أشد من لهيب الشمس، حصون جيش البنايين تتحكم في كل الطرق وعيون الماء، وأهل الصحراء إما موالون وإما خائفون، لكن ربما لم تصلهم الأخبار بعد، فلأبتعد عن الحصون والطرق ولأذهب إلى مضارب أهل الصحراء إذن، لا بد أنهم سيسعدون لرؤية الأمير، فلطالما احتفوا بي وأنا مع سنوحي وقدموا لنا أشهى ما يمكن من لحم الخراف المطهو دفنًا في الرمال".

"لكن.. إلى أين المفر؟

وإلى أين المقر؟

إلى أين؟".

*****

تائهًا في بحر الرمال اللا نهائي، منهكًا تمامًا، تحوم فوقه جوارح السماء، وتحوم حوله ضواري الصحراء، فها هو وقد أصبح فريسة سهلة ستقع بين مخالبهم وأنيابهم قريبًا دونما جهد أو عراك.

يحاول جاهدًا أن لا يسقط بينما لم تعد قدماه تحتملان السير، غامت عيناه ولم يعد يشعر بالزمن، الجوع والعطش وحرارة الشمس ووعورة الطريق تفتت البقية الباقية من قدرته على الاحتمال.

جسده يئن ودعامات قدمه تنكسر واحدة تلو الأخرى.

لا يدري إذا ما كان قد سقط على الأرض أم لا، لكنه سمع قبل أن يغيب عن الوعي صوت جناحين عظيمين يرفرفان فوق رأسه، وضواري الصحراء تزوم فوق جسده.

*****

- عاااااا.... عاااااا.

تصيح ليلث التي تنتبه لتلك الضواري المتجمعة في وسط الصحراء، والتي يبدو أنها تنهش وليمة عظيمة، يأخذها الفضول لتتعرف

على تلك الفريسة الشهية، فتترك قطيع الغنم وتقترب لترى جثة رجل مستسلم لقدره بلا حراك، فتصرخ وتعدو تسبقها كلابها لتطرد النسور والضواري التي تنهش جسد بحري المخضب بالدماء، ثم تصيح:

- أبي.. أبي.. يوجد رجل ملقى على الأرض.

يتقدم كاهن الرمال الأكبر من جثة بحري، ينظر إلى سمته وملابسه، ثم يقول:

- ... إنه أمير البنايين الأعرج.

فتردد الابنة متعجبة:

- أمير؟!

- فلنأخذه إلى الكهف، ساعديني لنضعه على الناقة.

يبلل الكاهن يده ليمسح وجه بحري وشفتيه ورأسه، ثم ينخ الناقة التي تصدر حنينًا يتردد صداه في الصحراء القاحلة. تقف الناقة فيرتج بحري فوقها ارتجاجًا عظيمًا يُفيقه من غيبوبته لثوانٍ، ليرى نفسه طائرًا فوق رمال الصحراء الملتهبة على دابة ضخمة لا يستطيع تمييزها، فيغمض عينيه ويغرق ثانية في الغيبوبة.

*****

كان هذا هو موعد الابتهال والانعزال السنوي لكاهن الرمال الأكبر، حيث يترك مضارب القوم ويرتحل بصحبة ابنته الراعية ليلث ليعيش شهور الصيف في كهف الوصل، حيث يكرس وقته للتأمل والتواصل مع إله الرمال، يطلب لقومه المطر والكلأ والنصر، ويدعو لأعدائه بالهلاك والفقر والهزيمة. وكانت ليلث تزوره في خلوته تلك كل فترة لتمده بالزاد والمياه، ولتنقل نبوءاته –متى جاءت– لملك الملوك، وأوامره –متى صدرت– للأتباع من الكهنة والمريدين.

مع حلول الظلام وغياب القمر، جلس الكاهن الأكبر يرقب الشهب ونجوم السماء اللامعة وهو يفكر في هذا الأمير الممدد بلا حراك على أرض الكهف:

"ترى ما الذي أتى بك إليَّ؟ أي ترتيب إلهي؟ أمير البنايين معي في كهف التعبد! وأنقذه من الموت! لماذا؟! ما الذي يطلبه مني إله الرمال؟ ماذا يريدني أن أفعل بهذه العطية العجيبة؟ رجل من بيت أعدى أعدائنا يظهر هكذا فجأة أمامي في وسط هذه الصحراء الشاسعة مترامية الأطراف، لأجده في طريقي مسجى لا حول له ولا قوة، على بعد خطوات من كهف الوصل والتعبد! مؤكد أنها لرسالة.. وأي رسالة؟!".

أيام وليالٍ مرت والكاهن الأكبر يعتني بالعطية الإلهية؛ يسقيه جرعات قليلة من الماء، يطعمه بضع ثمرات من تمر، ويداوي جراحه بروث الإبل المخلوط برمال الصحراء.

مر قمر وجاء قمر وليلث تأتيه بالأخبار؛ فالأمير الذي لا يفيق من غيبوبته قاتل هارب لا يستطيع العودة، وشعبه من الشرقيين متشوق لمعرفة مصيره، حصون البنايين رصدته ولكنها تركته يهرب، وهم لا يفعلون ذلك أبدًا مع أي قاتل أو مجرم سواء كان غفيرًا أم أميرًا، فلا بد إذًا أن الأوامر قد صدرت للحصون بتركه وعدم ملاحقته! ومن يقدر على إصدار مثل تلك الأوامر إلا.. الملك؟

"ترى ما الذي أتى بك إلى هنا؟ أتعلم كم أُكره ملابسك تلك؟ أتعلم كم هدأت بعدما نزعتها عنك؟ أتعلم مقدار سعادتي وأنا أحرقها؟ ترى لو لم تكن عاصيًا هاربًا ماذا كنت لأفعل بك؟ ماذا لو كنتَ الأمير الآخر، ولي العهد؟ آه! ماذا لو كنتُ قد وجدتُ ولي العهد ممددًا يموت أمامي في الصحراء؟".

ومع كل غروب يدعك الكاهن جسده برمال الصحراء، ويوقد نارًا على باب الكهف، ثم ينظر إلى السماء رافعًا صوته طالبًا الوصل:

"إلهي..

يا رب الرمال ألهمني

أطلعني على ما تريد

أطلعني على ما تريدني أن أفعل

أريد أن أسمعك كما تسمعني

لماذا؟

لماذا هو؟ ولماذا أنا؟

وماذا تُرتب لنا؟

يا رب الرمال.. ألهمني".

وبحري غارق في غيبوبته، لا يفيق إلا للحظات يسمع فيها همهمات وصياحًا لا يفهم منها شيئًا، مجرد كلمات متقطعة وأصوات مختلطة، أصوات إنس على أصوات حيوانات على أصوات لا يستطيع تمييزها، خيالات مخيفة على جدران الكهف، وقبس من نار يتراقص لهيبه، رمال على وجهه، ورائحة عطنة تهف عليه بين الحين والآخر. يحاول أن يتحرك فلا يستطيع، تتحسس يداه أرض الكهف الخشنة فلا يميز أين هو، ولا كم مر عليه في غيبوبته تلك وهو على الخط الفاصل بين الحياة والموت.

والكاهن لا يزال يدعو كل ليلة متضرعًا:

"يا رب الرمال

ها قد جئت إليك

فلا تخيب ظني

لمَ منعت المطر عنا؟

نحن أبناؤك وشعبك وجندك

لمَ تعيشنا في هذا الشظف والأنهار حولنا لدى شعوب لا تعرفك..

لا تعرف رحمتك ولا بطشك ولا قوتك؟!

لديهم أربابهم.. ونحن لا نعرف إلاك
لديهم جنات وعيون.. ولدينا صخور ورمال
أولادنا تموت ونساؤنا عليلات هزيلات الصدور
القطعان لا تجد الكلأ
والرجال يقتلون بعضهم بعضًا من أجل كسرة الخبز وجرعة الماء
ماذا نفعل؟
ألهمنا وارفع غضبك عنا
ألهمنا وارفع غضبك عنا

*****

صوت قطيع الأغنام يأتي من جديد، ينجح بحري في فتح عينيه هذه المرة، تصطدم عيناه بسقف الكهف الخشن المدبب، يحرك رأسه ناحية اليسار حيث ضوء النهار الساطع يدخل من مدخل الكهف، ثم يلف جسده بصعوبة مُصدرًا آهة واهنة، فيسمع صوت ليلث:

- لقد أفاق.

يدخل الكاهن الأكبر إلى الكهف بجسده النحيل الطويل وعباءته السوداء، ليقف أمام بحري صامتًا.

- ممكن أشرب؟

لا يتحرك الكاهن. ينقلب بحري مرة أخرى على ظهره وهو يتألم، ثم يقول:

- هل يمكنك أن تعطيني جرعة ماء؟

تأتي ليلث بقربة ماء صغيرة وتعطيها للكاهن، الذي يركع على الأرض ويعطي بحري جرعة صغيرة من الماء، ثم يقول:

- ها قد عدت من الموت. لكنك ما زلت تحتاج إلى مزيد من النوم والراحة قبل أن تستطيع القيام والكلام.

يغمض بحري عينيه، وتصدر عنه زفرة ارتياح؛ فهو لا يزال حيًّا وهناك من يعتني به، فيغمض عينيه وينام.

صحا بحري من نومه شاعرًا ببعض القوة في جسده، فاستند على يديه وجلس على أرض الكهف. كان القمر بدرًا، ينير ضياؤه الصحراء، وكان قبس النار المشتعل ينير مدخل الكهف، وكانت همهمات كاهن الرمال تتصاعد إلى السماء. مد بحري يده ليزحف إلى مدخل الكهف، فارتطمت يده بعصا طويلة بدت له عكازًا ليستند عليه عوضًا عن دعامات ساقه. قام بحري بصعوبة وجهد، وتحرك إلى باب الكهف ليرى كاهن الرمال جالسًا أمام قبس النار رافعًا رأسه إلى السماء متضرعًا بصوت معجون بالألم.

ينتبه كاهن الرمال لوجود بحري، فيتوقف عن التواصل ويلتفت إليه بنظرة يملأها الغضب والانزعاج. تمر برهة من الصمت، ثم يسأل بحري الكاهن:

- من هو رب الرمال؟

يزم الكاهن شفتيه، ثم يشيح بوجهه إلى الناحية الأخرى دونما رد.

*****

يصحو بحري فجرًا فزعًا على صوت صراخ ليلث، وسباب كاهن الرمال الذي يلطم ليلث على وجهها فتقع على أرض الكهف، يكاد وجهها يرتطم بوجه بحري، ثم تقفز مرتعبة بأقصى سرعة لتجري خارج الكهف، بينما يزداد صراخ الكاهن وهو يشير إلى آثار دماء على أرض الكهف.

- نجستي الكهف يا نجسة، نجستي الكهف، كيف يستمع الرب إليَّ الآن؟! آاااه! لهذا هو لا يستمع، لهذا هو غاضب؛ فالكهف نجس، وتضرُّعي أصبح هو الآخر نجسًا. سوف أبيعكِ في السوق.. أقسم برب الرمال سوف أبيعكِ في السوق بأبخس سعر حتى يشتريكِ أحقر الحقراء يا نجسة.

يقوم بحري مسرعًا مستندًا على عكازه الذي أصبح يتقن استخدامه، ويخرج من باب الكهف ليرى ليلث تجلس خائفة ووجهها ينزف دمًا فتكتمه بمزيج من الرمال والروث. يمسك بحري بطرف جلبابه بأسنانه، ثم يضع بعض الرمال في ثنية الجلباب، ويرجع إلى الكهف ليفرك دماء ليلث من على أرض الكهف، ثم يحملها ثانية في جلبابه ليرمي

الرمال المخضبة بالدماء بعيدًا. يهتاج كاهن الرمال ويصرخ في بحري الذي أصبح نجسًا هو الآخر، فيصيح:

- لا تدخل الكهف يا نجس.. لا تدخل الكهف. أنت من البنايين الأنجاس، وهي أنثى نجسة يغمرها الدم الفاسد، وربي لا يستجيب بسببكما، ربي لا يستجيب بسببكما. كان عليَّ أن أتركك تهلك، كان عليَّ أن أفهم أن رب الرمال غيور، يغار لنا وعلينا، وأنتم البنايين أغيار لستم منا ولسنا منكم، كان عليَّ أن أتركك تهلك، بل سأتركك تهلك وحيدًا هنا.

يهجم كاهن الرمال على بحري ليجذب منه العكاز، فيسقط بحري على الأرض، بينما تهمهم ليلث بصوت لا يكاد يكون مسموعًا:

- ملك الملوك يريد أن يراه.

فيلتفت الكاهن صائحًا:

- ماذا تقولين؟

فترفع ليلث لبخة الرمل والروث عن وجهها، ثم تقول بصوت أعلى:

- ملك ملوك الرمال يريد الأمير بحري.

تتسع حدقتا كاهن الرمال الذي يفغر فاه ويصمت للحظة، ثم يقول:

- كيف عرفتِ؟

- جاءني رسول الملك، وسيعود ثانية حالما تصل للمضارب؛ لكي يأخذ بحري إلى ملك الملوك.

- الأمير.. الأمير.. لعنة الله عليكِ وعلى الأمير. وماذا قلتِ له؟

- قلت له إني سأبلغك.

يصرخ كاهن الرمال كالمجنون وقد طار صوابه:

- الآن، سنرحل الآن. لم يعد هناك فائدة من الدعاء في هذا المكان النجس يا أنجاس. سنرحل الآاااااان.

*****

"ما هذا الفقر المدقع؟! لمَ كل هذا التوجس والريبة؟! لا أحد يريد التحدث معي. حتى الكاهن يتجاهلني. ألم يقل إن ملك الملوك يريد مقابلتي؟ متى إذًا؟ ولماذا؟ وما بال هؤلاء الأطفال؟! لماذا يتفرجون عليَّ وكأنني أعجوبة من أعاجيب الزمان؟! وهذا الطفل الشقي الذي يقترب من خيمتي أكثر فأكثر كل يوم، ماذا يريد؟".

تقترب ليلث من بحري، تضع أمامه خبزًا ومياهًا وتلتفت لترحل، فيسألها:

- ماذا يريد هذا الطفل؟

تلتفت ليلث للطفل الصغير وتسأله، فيرد موجهًا كلامه لبحري وهو يشير إلى قدمه:

- كيف جئت إلى هنا؟

ينظر بحري إلى قدمه اليسرى، ثم يضحك ضحكة مدوية ينزعج منها الطفل، فيرفع بحري يديه ببطء إلى أعلى ويقول:

- جيت راكب تنين كبيييير.

يفزع الطفل ويجري عائدًا إلى خيمته، بينما ترتسم ابتسامة عريضة على وجه بحري.

في اليوم التالي يخرج بحري من خيمته في الظهيرة، ليجد كل أطفال الرمال واقفين أمام خيمته عن بعد، فيبتسم ويقول:

- أنتو كمان عايزين تعرفوا أنا جيت إزاي؟

تهز الأطفال رؤوسها بالإيجاب.

- طاب اقعدوا.. أو قرفصوا. بس أنا حأحكي زي حكي البنايين، ولو ما فهمتوش حاجة قولوا. اتفقنا؟

يجلس بعض الأطفال على الأرض، والبعض يظل واقفًا متأهبًا للفرار في أي لحظة، بينما البعض الآخر هرب فعلًا.

ويبدأ بحري في الحكي وهو يشير بيديه ويتحرك بجسده واصفًا لما يحكي:

- أنا اسمي الأمير بحري، أمير بلاد البنايين.

تصدر شهقة تعجب وخوف من الأطفال، فيبتسم بحري ويصمت قليلًا، ثم يسرح بنظره ويقول:

- أنا ابن الملك.. وأنا ولي العهد.

تتسع عيون الأطفال في تعجب وذهول، فينتشي بحري ويكمل:

- في يوم من ذات الأيام، كنت ماشي على ضفة النهر العظيم اللي مالوش أول ولا آخر. قوم إيه؟ لقيت ولد صغير قاعد بيعيط، رحت على طول مغير هدومي الملكية ولبست لبس الناس الغلابة؛ علشان مايخافش مني، ورحت له وسألته بيعيط ليه، قام قال لي إيه؟

- .....

- قال لي إن التنين المرعب خطف أبوه وأمه.

تصدر آهة فزع من الأطفال، فيستطرد بحري:

- قمت أنا مخرج سيفي الملكي ودخلت في الغيطان اللي التنين دايمًا بيستخبى فيها، وقعدت أدور أدور، يوم.. اتنين.. تلاتة.. لحد ما في يوم كانت الدنيا فيه حر قوي والصهد بيدوّب أوراق الشجر، قوم إيه؟ لقيت التنين نايم تحت شجرة كافور كبيرة.. كبيرة قوي.. وقاعد تحتها مين؟ أبو الولد وأمه، خايفين مرعوبين بيترعشوا من الخوف لأحسن التنين يقوم يقرقشهم. قوم إيه؟

فيرد بعض الأولاد همسًا:

- إيه؟

- قمت أنا فاطط ناطط فوق ضهر التنين.

ارتفع صراخ الأولاد وقاموا من أماكنهم، وبحري ما زال يقول:

- وقمت راكب عليه، وماسكه من ودانه. صحي التنين الجبار، ومنخاره بيطلع نار، فرد جناحاته وطار و.....

صرخ الأطفال وهربوا فزعًا، بينما استلقى بحري على قفاه من الضحك.

*****

تتزايد الأصوات والهمهمات خارج الخيمة؛ فلقد اقترب موعد الحدوتة، وبحري مستعد.

ينظر من خلف باب الخيمة، ها قد اكتمل عدد الأطفال، وها قد تبعتهم أمهاتهم، والرجال مقرفصون في انتظار ليستمعوا عن بعد.

يمد بحري عكازه ببطء خارج باب الخيمة إيذانًا بخروجه، فيصمت الجميع. يتنحنح فينكمشون وتتسع أحداقهم. يخرج من باب الخيمة مرتديًا عباءته الجديدة العجيبة المخططة متعددة الألوان، والتي لم يرَ لها أحد مثيلًا من قبل، فيتوجس الأطفال خيفة ويمسكون ببعضهم البعض.

يجلس بحري مربعًا على شلتة مرتفعة، يسعل ثم يبدأ الحدوتة:

"كان ياما كان

زمان زمان

في بلاد غير دي البلاد

وعباد غير العباد

حاكم ملك جبار

رجليه أطول من النخلة

وعيونه بتطق شرار

يضحك، الأرض تزلزل

يغضب، تقيد النار

والدنيا أسياد وعبيد

والحاكم كان عنده عبيد

العبد يشيل الأحمال

أثقال من فوق الأثقال

والحاكم ظالم عربيد

رابط العبد بقفل حديد

وأما يقرب يوم العيد

يؤمر تندبح الأطفال

يبقى العبد بيصرخ: "ابني"

والحاكم يضحك ويغني

تشهق إحدى النساء، ثم تضع يدها على فمها حتى لا يسمع أحد صوتها، ثم تهمس لطفلها الجالس أمامها، فيسأل بحري:

- والحاكم كان اسمه إيه؟

يفكر بحري للحظة، ثم يقف فجأة ويتقدم صوب الأطفال وهو يصرخ بصوت جهوري وهو يهتز ويداه ترتعشان:

- برعو. الحاكم كان اسمه برعو..... برعو..... برعووووووووووووووو.

تهرول النساء ويجري الأطفال، ويعم الصراخ في المكان.

*****

يجلس أمام خيمته ليشهد عودة محاربي القبيلة من غزوتهم الشهرية ظافرين، يحملون الغنائم من ذهب وثياب وأطفال ونساء، وها هو كاهن الرمال يباركهم ويبارك غنائمهم، ولن يمر وقت طويل حتى ينصب سوق النخاسة في وسط المضارب، ولن يمضي وقت طويل حتى يذهب الكاهن الأكبر إلى خيمته ليبدل عباءة الكهانة ويرتدي عباءة كبير النخاسين.

لم يعد بحري يستغرب المشهد المتكرر؛ ذهل في أول مرة، ثم اعتاد الأمر، بل أصبح ينتظره؛ فهو يمثل عيدًا للقبيلة؛ فمع كل انتصار، وتبعًا لحجم الغنائم، تذبح الشياه وتفرش الولائم.

ويبدأ كبير النخاسين في النداء على بضاعته:

"قرب قرب

قبل ما شمس اليوم تغرب

أطفال أشداء للحرب

غلمان وغلاميات للفراش والمتعة

ونساء للخدمة والذرية".

و البضاعة على عينك يا تاجر، يتم تعريتها وتحسسها وتقليبها؛ ضمانًا للجودة وللقيام بالمطلوب منها على أُكمل وجه.

فجأة يسمع بحري صوتًا:

- عاااااا.. عاااا.

ينتبه بحري لذلك الجمل الذي ينخ أمام خيمته فجأة، والذي يترجل من عليه رجل ملثم يرتدي ثيابًا فاخرة تذكره بماضٍ يبدو سحيقًا. يقترب الملثم ليجلس قبالة بحري، ثم يقول:

- ألا تعرفني؟

- الصوت مش غريب.

يزيل الملثم لثامه، فيصرخ بحري:

- مش معقول.. شاران! إيه اللي جابك؟ وما لك نضفت كده؟!

يضحك شاران ضحكة مجلجلة، ثم يقول:

- وأنت إيه اللي بهدلك كده؟!

- هههه! الزمن اللعين. طمني أخبار هوديت وآلاي إيه؟

- هوديت خلفت بعد ما أنت مشيت. وآلاي زي ما هو.. عايش.

فيتساءل بحري متعجبًا:

- وهي هوديت لسه بتخلف؟!

فيبتسم شاران ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- وهو يعني آلاي اللي فيه حيل؟!

يضحك بحري حتى يدمع، ثم يسأل:

- وأنت جبت العز ده منين؟ إيه؟! بقيت شيخ بلد؟!

فينظر شاران في عين بحري، ويقول بجدية:

- لأ، بقيت شيخ منسر.

- هههه! لأ، أنا بتكلم بجد.

- وأنا بتكلم بجد.

- يعني إيه؟!

- يعني أي حد عايز يعمل أي حاجة بيجي لي. ولو أنا عايز آخد أي حاجة باخدها.

فيتعجب بحري ويتساءل:

- والقانون فين؟ والأمن والعدل؟

- هه؟ خلاص بح! أوزير كبر وشاخ وإيده خفت عَ البلد.

- وحور راح فين؟

- ندهته النداهة.

التفت بحري في دهشة، بينما استطرد شاران:

- بت سمرا زي القمر من بلاد الكوش دبحته بعينيها، فاتجوزها وقعد حداها، وبقى فلاح بيزرع وبيقلع، ونسي الحكم والدنيا كلها.

- قصدك عاش الدنيا كلها! هه.

يسرح بحري وينظر للشمس الغاربة خلف الجبل، فيتركه شاران لبرهة ثم يقول:

- وأنت مش ناوي ترجع؟

- أرجع أعمل إيه؟ وأرجع للموت ليه؟

- سيبك من موضوع الموت ده؛ الملك لو كان عايز يجيبك ويحاكمك كان عمل كده من زمان. كل القلاع على الطريق رصدتك، والملك أمرهم يسيبوك؛ يعني مش في نيته يئذيك من الأصل.

- يعني إيه؟! أوزير سابني؟ يعني مش حاتحاكم؟

- حتتحاكم طبعًا.. دي ولا حتى الملك يقدر يعفيك منها. لكن أنا ممكن بنفوذي أرمي القتل على حد تاني، أو أخلي حد تاني يعترف إن هو اللي قتل.

- هههه! كل الناس في حارة الحمالين شافوني، وأنت هللت زي الأهبل. والملك لو شاخ قضاة البنايين ما بيشيخوش، والعدل عندهم أعز من ولادهم. تضمن أنت إن القاضي يطلعني براءة؟

يصمت شاران ويزم شفتيه، ثم يقول:

- لأ، ما أضمنش. بس لازم نحاول.

يفكر بحري لبرهة، ثم يقول:

- أنت جيت ليه؟

- ههه! وحشتني.

ينظر بحري في عينَي شاران، ويسأله مرة أخري:

- أنت جيت ليه؟

- أنت فاهم لو قدرنا نبرَّاك ده معناه إيه؟

- إيه؟؟

- حور مش موجود، وأوزير كبر وعجّز، والست بتحبك.. وأنت الأمير.

فيرد بحري ساخرًا:

- وأنت شيخ منسر.

- تمام. يعني دراعك اليمين اللي بتضرب بيها وقت اللزوم.

- ....

- ومعانا الشرقيين اللي كتروا وبقوا زي النمل وموجودين في كل حتة في البلد، حتى في قصر الملك وفي أوضة نومه، معظم الحراس وكل الخدم بقوا من الشرقيين، يعني أتباعنا وتحت أمرنا.

ثم يضحك شاران وهو يقول:

- البركة فيك بقى؛ دخلتني القصر.

فيرد بحري:

- والبركة فيك؛ خرجتني منه.

يصمت بحري برهة وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، ويرفع نظره إلى السحاب الذي تحول لونه إلى الأحمر القاني مع انعكاس شمس الغروب عليه، ثم يقول:

- عمرك سمعت عن رب الشرقيين؟

تسود لحظات من الصمت، ثم يقول شاران:

- أنت إيه اللي جاب الموضوع ده في دماغك؟

- عمرك سمعت عن رب الشرقيين؟

- آلاي كان دايمًا بيحكي لي عنه وعن وعوده لينا، وأنا صغير. وحكى لك أنت كمان. مش كده؟

يهز بحري رأسه موافقًا، ثم يقول:

- أنا شفت رب الشرقيين.

يلتفت شاران ويحدق في بحري متعجبًا، بينما يستطرد بحري:

- وكلمته.

- .....

- وجدد لي وعوده لينا بالأرض والملك.

تتسع حدقتا شاران ويفغر فاه لبرهة، ثم ترتفع ضحكته مدوية وينظر إلى بحري بعينين لامعتين وهو يقول:

- يبقى لازم ترجع.

*****

"أخيرًا سأقابل ملك الملوك! كم سنة قضيت في هذا المكان؟ بل كم عقدًا؟ هه؟ وكم سأبقى؟!".

تتابعت الأسئلة تترى على ذهن بحري وهو يسير خلف رسول ملك الملوك.

"ولمَ اختار ملك الملوك هذا اليوم العاصف لمقابلتي؟ اللعنة على تلك الرمال؛ لقد ملأت عيني وأنفي! ترى ماذا يريد مني؟ ولمَ الآن؟ هه؟ ولمَ تركني كل هذا الوقت؟".

وقف رسول ملك الملوك أمام البيت المصنوع من الأحجار والجريد والطين، وأشار لبحري بالدخول، فدخل بحري ليجد ملك الملوك جالسًا على شلتة على الأرض، فجلس قبالته.

تعجب ملك الملوك من سلوك بحري؛ فهو لم يأذن له بالجلوس بعد. ثم تذكر أصل بحري الأميري؛ فابتسم ابتسامة شاحبة، ثم نظر إلى الأرض. سادت لحظات من الصمت، تعجب منها بحري ولم يدرِ ماذا عليه أن يفعل؛ هل يبادر بالكلام؟

وملك الملوك يبدو غائبًا شاردًا وكأنه يفكر في خلق الكون. بدأ بحري يتململ في جلسته حتى رفع ملك الملوك رأسه أخيرًا وقال:

- ما رأيك في معيشتنا؟

باغت بحري السؤال، فرد تلقائيًا:

- ضنك.

- وماذا عليَّ أن أفعل حتى تصبح يسرًا؟

- تتوقف قبائلك عن محاربة بعضها البعض، وعن نهب القوافل.

- وكيف يعيشون إذًا؟

- هناك بلاد أخرى من حولك تجري من تحتها الأنهار.

يلتفت ملك الملوك ليتفحص بحري بعينيه الضيقتين الثاقبتين، ثم يقول:

- بيننا وبينهم معاهدة سلام.

- من وافق على المعاهدة من طرفكم مات.

يصمت ملك الملوك، فيستطرد بحري:

- ومن وافق من طرفهم سيموت.

يبدو التعجب على وجه ملك الملوك، بينما يستطرد بحري:

- وأنت لديك محاربون أشداء، يحاربون كل يوم ضد القبائل الأخرى، هه، وضد بعضهم البعض أيضًا.

- وماذا فعل محاربونا في كل الحروب السابقة؟ ألم يُهزموا؟

- لهذا أنت في حاجة إلى أمير.

يعجب ملك الملوك بهذا الرد المباشر الصريح؛ فيبتسم، ثم يسأل:

- وبمَ سيفيدني ذلك الأمير؟

- الأمير يعلم مداخل البلاد ومخارجها، عاداتها وحكامها، والأهم من ذلك كله؛ فهو يعلم أفكار شعبها.

يبدو وجه ملك الملوك جامدًا غير مكترث بما يقال، وكأنه لا يسمع شيئًا؛ فيستطرد بحري في جدية مصوبًا عينيه إلى عينَي ملك الملوك.

- أنت لا تملك ما تقدمه للبنايين. كل ما يمكنك عمله هو الانتصار في معركة أو معركتين، ثم سيكتسحونك تمامًا وحتى لو بدون حرب؛ جيوش الرمال وحدها لا تكفي لهزيمة البنايين. أملك الوحيد لتنتصر عليهم حقًّا وتحكمهم هو في أن تجعلهم مسوخًا بلا تاريخ، مسوخًا بلا فن ولا علم، مسوخًا تكره أرضها وتهيم كالسابلة لا تعرف لها مستقرًّا، مسوخًا تجد فيك الأمل والرجاء.

يبدو على ملك الملوك عدم الفهم؛ فيبتسم بحري ابتسامة سخرية، ويستطرد:

- ولدى الأمير أيضًا شعبه من الشرقيين.

ينتبه ملك الملوك وتنبسط أساريره، بينما بحري يقول:

- وهم موجودون الآن في كل مكان في أرض البنايين، الحقول والأسواق، وحتى قصر الملك.

- على ما أعلم، إنهم مستضعفون ويحلمون بمن ينقذهم ويمنحهم ملكًا وأرضًا تفيض بالعسل واللبن.

يبتسم بحري ويقول:

- وأنت منقذ المستضعفين. أليس كذلك؟

فيرد ملك الملوك بابتسامة عريضة:

- طبعًا، أنا ملك ملوك المستضعفين.

*****

الغروب

يدخل تحوت إلى قاعة العرش منفعلًا وهو ما يزال بثياب السفر، فيلتفت إليه أوزير في هدوء ليرى ملامح غضب لم يعتدها:

- أهلًا، تحوت.

فيرد تحوت بلهجة رسمية غاضبة:

- سيدي، أنت أمرت الحاميات علشان ما تقبضش على بحري؟

- أعتقد من الأنسب إنك تهدا قبل ما تكمل كلام.

- أنت كسرت الميزان؟!

- أنا عوضت أهل برعو و...

- مين إداك الحق تكسر ميزان العدل؟

- واضح إنك منفعل.

يرتفع صوت تحوت:

- أنت فاهم أنت عملت إيه؟

فيرد أوزير بهدوء حاسم:

- واضح إنك مش فاهم أنت بتكلم مين وبتتكلم إزاي!

- أنا فاهم إني خايف عليك وعلى المملكة أكتر من نفسك.

- وعلشان كده سبت حور يعيش في الكوش وبقت المملكة من غير ولي عهد؟

- حور عرف إنك كسرت ميزان العدل وأصدرت أوامر تمنع القبض على قاتل.

- القاتل ده ابني وابن الست.

- يقوم ما يتحاكمش؟! مين كمان حتعفيه من المحاكمة؟ ولاد الأمراء والقادة الكبار؟ والا ولادك أنت بس؟ أنت كده بتقبل القتل وبتفتح باب الظلم طالما الظالم قريب منك أو من العرش، أنت كده بتخرب المملكة.

- وأنت كده تعديت حدودك. والأفضل إنك تخرج من القصر حالًا.

- أنت كمان بقيت مش قادر تسمع الحق!

- أنا بقيت بأسمع الرحمة.

- من غير محاكمة مافيش رحمة، فيه فوضى حترتد في صدورنا.

- أنت ليه مش قادر تستوعب حجم قوتنا؟!

- وأنت ليه مش قادر تستوعب معنى اختلال ميزان العدل في إيدك؟! ليه مش قادر تستوعب أثر ده على المملكة؟!

- المملكة عمرها ما كانت مزدهرة زي دلوقت.

- من غير عدل؛ يبقى ازدهار مزيف حيضيع في لحظة.

يرفع أوزير يده ويقول بلهجة آمرة حاسمة لا تنتظر ردًّا:

- أعتقد من الأفضل إنك تسيب وظيفتك في القصر وتتفرغ بس للمكتبة.

يصمت تحوت الذي لم يتصور يومًا أن تنفصم عرى علاقته مع الملك بهذا الشكل، يكتسي وجهه بالحزن، يستدير ثم يخرج وهو حزين على الملك وعلى المملكة.

*****

كعادتهما كل يوم يلتقي الملك وطبيبه الخاص في مدخل حديقة القصر الأمامية، ليسيرا معًا في مشوار طويل حول الحديقة الأمامية ثم الحديقة الخلفية، لينتهيا عند رمال الشاطئ.

- إيه الأحوال؟

من طول اللقاءات أصبح سنوحي مدركًا لمقاصد كلام أوزير وحتى إن لم يقلها؛ فهو ليس فقط طبيبه الخاص وأهم مستشاريه، بل أيضًا كاتم أسراره وسفيره الخاص ومبعوثه الذي يقوم بأعقد المهمات. وبداية كهذه تعني أن الملك يريد أن يسمع الأحوال في داخل المملكة وخارجها.

- شعب البنايين في حالة ازدهار عمره ما حصل قبل كده، قرارك الحكيم بالسلام وعمل معاهدات مع الدول اللي حوالينا وفتح بيبان المملكة للتجارة معاهم خلى الدولة في أغنى حالاتها، المكتبات بقت في كل مدينة وأولادنا بيتعلموا أحسن تعليم، الجامعات كترت وفتحت أبوابها لكل الشعوب اللي حوالينا، بقينا أصل العلوم والفنون والفكر والفلسفة للكل، الكل بييجي والكل بيتعلم هنا وبيرجعوا لبلادهم يعلموا

ولادهم، البنايين بقوا بيختاروا يشتغلوا إيه وما يشتغلوش إيه، وأي حد من البلاد اللي حوالينا بيحلم ييجي يعيش ويشتغل عندنا ولو أشغال بسيطة.

- بس تحوت منزعج ومعتكف في المكتبة، وكمان قائد الجيش منزعج. لكن من حسن الحظ ما يقدرش يعتكف. هههه.

- تحوت شايف إن فيه أفكار كتير دخلت على عقيدة البنايين؛ الشرقيين وشعب الرمال بيروجوا أفكار فيها استعداء علينا وعلى حضارتنا، وقائد الجيش غضبان من تخفيض عدد الجنود، وغضبان أكتر من حالة الترف اللي أصابت الناس فبقوا بيرفضوا الأشغال البسيطة وكمان بقوا بيرفضوا دخول الجيش.

- حضارتنا أعظم من إنها تنهار من شوية حواديت لا راحت ولا جات. وشعب البنايين وقت الحاجة بيرمي الفاس وبيتحول كله لجيش. واضح إن تحوت عايز يهرب من مسؤولياته، وقائد الجيش نِفسه يحارب وخلاص! لازم نتعلم التسامح وتقبل الآخرين المختلفين عنا، وواحدة واحدة نعلمهم وننور عقولهم.

يسود الصمت ولا يبقى إلا صوت أقدامهما؛ فيفهم سنوحي أن الملك سيغير الموضوع.

- إيه أخبار الملكة؟

- آخر مرة شفتها إمتى؟

يرد أوزير متألماً:

- بقينا بنشوف بعض صدفة في حديقة القصر. من يوم ما بقيت بأنام عند نفرت وهي مابقتش قادرة تستحمل وجودي معاها في أوضة واحدة. بتحاول كل مرة تخبي عليا، لكن أول ما بأتدور علشان أنام بأسمع صوت بكاها المكتوم طول الليل. الموضوع بقى مؤلم جدًّا ليها وليا. طمني عليها.

- بقدر حبها بقدر ألمها، وبقدر كبريائها بقدر بعدها. لكن بقيت بأحس إنها بقت مكسورة من الداخل، ونفسها تعتزل الحياة بكل ما فيها.

يبدو الألم على وجه أوزير، ويقول:

- كلنا بعدنا عنها للأسف، أنا وحور.. وبحري. هم أخبارهم إيه؟

- حور سعيد جدًّا؛ تحول لفلاح قراري ومراكبي محترف. ههه! وخلف طفلة جميلة إمبارح.

يضحك الملك ويقول:

- مين كان يصدق؟!

- وبحري اتجوز بنت كاهن الرمال الأكبر، وبقى الحكاء الأعظم في مملكة الرمال، عمال يحكي حواديت لا ليها أول ولا آخر.

- حواديت برعو اللي رجله طول النخلة. مش كده؟

يستغرق سنوحي والملك في الضحك، بينما يقول سنوحي:

- ناس كتير فاكرة إنه بيحكي علينا، وإن الحواديت دي حصلت فعلًا في مملكة البنايين.

يزداد ضحك أوزير حتى تدمع عيناه، ثم يسير مبتعدًا إلى جناح نفرت.

*****

ما زالت تصحو كل يوم مع شعاع الشمس.

وما زالت تسمع صوت حور وهو يدعوها كي يذهبا معًا إلى الشاطئ.

وما زالت تسير في مهابة وإن كانت خطواتها قد أصبحت أكثر بطئًا.

وما زالت جميلة وإن كان شعرها تحول إلى اللون الأبيض الناصع.

وما زالت تبعث ابتسامات الطمأنينة للجميع وإن كان قلبها يدمي.

تحاول قدر الإمكان أن تخفي ألمها عمَّن حولها، لكن كثيرًا ما تخونها عيناها؛ فلقد غامت لمعة العين النابعة من سعادة القلب، وحل محلها ألم الماضي ووجع البعاد.

لم تكن تتخيل الست يومًا رحيل حور عنها، وتخليه عن القيام بدوره في قيادة المملكة.

لم تكن تتخيل تحول بحري إلى قاتل هارب لا تعلم عنه شيئًا.

ولم تكن تتخيل أن يجيء ذلك اليوم الذي تبحث فيه عن أوزير في فراشها فلا تجده.

حاولت في بادئ الأمر أن تتفهم، ولكن هيهات. كيف لها أن تتحكم في قلبها الذي يُدمَى وعقلها الذي تتنازعه الأعاصير ونفسها التي تلومها بل وتؤنبها وتجلد روحها ليل نهار؟!

كل ما حاولت بناءه هُدم أمام عينيها وهي عاجزة تمامًا، لم تشعر قط بمثل هذا العجز، شعور العجز يقتلها ويزيد من ألمها، وهي التي كانت دومًا مقاتلة جسورة وسيدة مهابة، أمًّا مطاعة وزوجة محبة عاشقة.

"أين أخطأت؟ ماذا فعلت كي أصبح هكذا؛ وحيدة أجتر الماضي في ألم وأنتظر غدًا أكثر ألمًا؟ ألم أعطِ الجميع كل ما أستطيع؟ ألم أمتلك الشجاعة والحكمة؟ هل هذا هو نتاج عملي؟ أم إن هذه هي الدنيا؟ هل كنت حالمة ساذجة؟ أوَلم أفهم الدنيا بعد؟ هه؟ وهل هناك من فهم؟ ترى هل سنفهم في لحظة الموت حينما يكون قد فات الوقت؟ وما فائدة الفهم إذًا؟! هل كل ما نفعله ونعيشه عبث؟! مجرد عبث؟!".

*****

انتهى أوزير من مشواره اليومي في حديقة القصر، ثم اتجه إلى كرسيه المفضل الموضوع على رمال الشاطئ. كان الجو جميلًا والشمس ساطعة في حنو دافئ يدعو للاسترخاء والتأمل.

"آه! ما أجمل الحياة، تلك الفاتنة المراوغة التي تمنح وتمنع، تقبل وتدبر! غانية لعوب هي، تخون الجميع ولا يملكون إلا عشقها، وعندما

تشعر أنك ملكتها في قبضتك تتسرب من بين أصابعك كمياه البحر. ترى هل نحن حقًّا نخاف الموت؟ أم إننا نخاف فراقها؟".

يمد أوزير يده اليمنى ويرفع جرة الجعة الطازجة التي يضعها الخدم يوميًّا بجوار كرسيه حتى يجدها باردة بعد مشواره الصباحي اليومي.

"آه! ما أروع الرمال البيضاء والبحر الأزرق، اللون الصاعد إلى خط الأفق اللا نهائي، وتلك السماء الصافية! وما أجمل الجعة الباردة في يوم مشمس كهذا!".

يتجرع أوزير الجعة التي تروي ظمأه وتهدئ نفسه، فيخلع نعليه ويمد قدميه على الرمال الدافئة، يغمض عينيه ويُرجع رأسه للخلف مستسلمًا لنسيم البحر، وينام.

مع غروب الشمس وتحول لون السماء إلى اللون الأحمر الدامي، ارتجت جنبات القصر لصرخة الست التي هرولت بأقصى ما تستطيع حتى تصل إلى جسد أوزير المسجى على رمال الشاطئ.

*****

يضع حرس القصر جثمان أوزير على السرير في حجرة الست، بينما تجلس الست بجواره وهي تنظر إليه ذاهلة. تدخل نفرت الحجرة مسرعة، ثم تقف على باب الحجرة لتنظر غير مصدقة، تتقدم في بطء

لتلثم جبين أوزير، ثم تتجه إلى الست لتقبل رأسها، ثم تخرج مهرولة دامعة.

- سيدتي، لازم نبدأ في تحنيطه وتكفينه.

تسمع الست صوت سنوحي وكأنه قادم من أعماق الأرض، فيبدو عليها عدم الفهم، فيقول سنوحي بصوت خفيض:

- سيدتي، مانقدرش نسيبه كده كتير.

فترد عليه الست بصوت مكلوم مخنوق:

- أرجوك سيبه معايا للصبح.

تخلو الحجرة تمامًا إلا منه ومنها، تضع الست أجمل عطورها، تشعل الشموع وتمتد بجواره على السرير، تمسك يده لتلثمها وتحتضنها بيدها، وتغمض عينيها.

*****

- سيدتي.. سيدتي.

تصحو الست فزعة وتلتفت لتجد سنوحي واقفًا بجوارها، بينما يدخل اثنان بمحفة ليأخذا جسد أوزير. تنسحب يد أوزير من يدها، فتشعر الست بانسحاب روحها من جسدها، تتسارع ضربات قلبها وتضطرب أنفاسها مع خروج أوزير من الحجرة يتبعه سنوحي.

تقوم الست من سريرها لتحاول اللحاق بهم، فلا يسعفها جسدها، فتنهار تمامًا وتتكوم على الأرض لتندب روحها التي سُلبت منها، وليتصاعد عديدها للسماء صارخًا:

- يا مليكي.

فجأة تسمع الست دبيبًا متزامنًا وأصواتًا تبدو مألوفة وإن تراكم عليها غبار الزمن.

- أمي.

ترفع الست رأسها لتجد أمامها بحري ومن خلفه هوديت، فتشق صدرها صرخة ألم مدوية:

- آه!

ينزل بحري على ركبتيه ويرمي عكازه على الأرض ليحتضن الست، وهو يقول:

- ما تخافيش يا أمي؛ أنا موجود.

تتشبث الست ببحري وتحتضنه وهي غير مصدقة، بينما تقول هوديت:

- البقية في حياتك يا ست الستات. مولانا الملك كان عزيز علينا قوي.

تنظر الست لبحري بعينين ذاهلتين وهي تقول:

- إيه اللي حصل يا بحري؟ إيه اللي حصل؟ إزاي حياتي كلها اتبدّلت كده؟ وليه؟ كل حاجة اتّاخدت مني؛ أنت وحور وأوزير! ليه؟ ليه؟

يصمت بحري للحظات، ثم يضع يده اليمنى على رأس الست ليربت عليها، ويقول:

- يمكن كنتي محتاجة تفكري شوية في حياتك، وحياة اللي حواليكي. يمكن محتاجة تفكري شوية أنتي جيتي الحياة فعلًا ليه، والرب عايز منك إيه.

تنظر الست إلى بحري بعينين ذاهلتين، بينما يستطرد:

- مش يمكن فيه حاجات في حياتك أغضبت الرب؟ مش يمكن ظلمتي حد؟ مش يمكن فيه ناس في المملكة مظلومين وكان ممكن تساعديهم؟

يزداد انفعال الست وتنهمر الدموع من عينيها، بينما يستطرد بحري:

- فيه حاجات كتير في المملكة لازم تتغير علشان ترضي الرب. ولو ساعدتيني في تطهير المملكة، أكيد الرب حيساعدك.

تتلاحق أنفاس الست بينما تنساب دموعها:

- أعمل إيه؟

- متهيألي قبل ما تعملي أي حاجة، لازم أنتي الأول تتطهري.

تردد الست بين زفرات الألم وهي ذاهلة، وكأنها غير قادرة على فهم مدلول الكلمات الغريبة التي تلقى عليها:

- أتطهر.. أتطهر..

تصدر صيحة ألم من صدر الست، بينما يشير بحري إلى خزانة ملابسها، فتفتحها هوديت لتُخرج خنجر الست الملكي، وتعطيه لبحري الذي يُخرج الخنجر من غمده ويقول:

- اهدئي يا أمي، اهدئي يا مليكتي؛ سوف تتطهرين الآن لتصبحي قادرة على سماع كلمات الرب وتنفيذ أوامره إليكِ.

يلف بحري شعر الست على قبضة يده اليسرى، ويمسك به بقوة، ثم يبدأ في جز شعرها بيده اليمنى بنصل الخنجر الحاد.

يشلب رأس الست دمًا، فينزل الدم على عينيها ووجهها المذهول، بينما يردد بحري:

- ببركة الرب تطهري، بالدم تطهري. فلتطِب روحكِ وتخلص للرب. ببركة الرب تطهري.

يرتج جسد الست كالطائر المذبوح، بينما شعرها المخضب بالدماء يتساقط على الأرض أمام عينيها الذاهلتين.

*****

في ليلة غاب فيها القمر، رست فلوكة صغيرة في وسط أحراش النهر الرابضة على الشاطئ، ونزل خمسة أشخاص ملثمون. التفت قائد المجموعة لشخص خلفه وسأله:

- أنت عارف البيت؟

فيهز ذلك الشخص رأسه مؤمنًا، ثم يقول:

- حنلف من جوا الغيطان علشان ماحدش يشوفنا.

يدخل الملثمون الخمسة في جوف الغيط، ويسرعون الخطى حتى يصلوا إلى وجهتهم.

يطفئ حور مصباح الزيت، يدخل حجرة أطفاله ليقبل رأس زوجته التي أهدته منذ يومين فقط مولودة جميلة ورثت لمعة عينَي أمها وملامح أمه.

"كم أفتقد الست! وكم أفتقد أوزير! سنين لم أرَ أيًّا منهما، لن أتحمل لومهما لي، ولا حتى عتابهما. وكلما طالت المدة، طال الملام وازداد ثقل العتاب".

يطفئ حور مصباح الزيت الآخر في غرفة أولاده، فيغرق البيت في ظلام دامس، فيذهب حور إلى غرفته ليستلقي على سريره مهدودًا من تعب اليوم.

"من يصدق أن ولي العهد حور أصبح فلاحًا، صيادًا، بحارًا، يسعى نهاره لجلب لقمة العيش لأولاده؟! من كان يصدق أن أترك

القصر والملك؟! ترى هل خفت من حمل المسؤولية وجبنت عن حمل الميزان؟ وهل هناك أقسى على النفس من حمل الميزان؟ فما بالك بأن أكون أنا الميزان ذاته؟! ماذا لو طبيت؟ ماذا لو غفلت أو نسيت أو غلبني الهوى وملت؟ أوزير ذاته لم يقدر؛ غلبته عاطفته وحبه وأبوته! فلمَ أقدر أنا؟ ولمَ أدخل نفسي في تجربة وأنا لم أطمع يومًا في حكم أو كرسي أو منصب؟!".

يتقلب حور في فراشه، وما إن يغمض عينيه حتى يسمع صوت أقدام على سطح المنزل، يزر عينيه منتبهًا ويركز كل حواسه علَّه مخطئ، فيسمع الصوت مرة أخرى؛ يقوم حور بهدوء، يلتقط الشومة التي يحطب بها، يذهب ليغلق باب الحجرة التي تنام فيها زوجته مع الأولاد، ثم يقف تحت السلم منتظرًا القادم من السطح.

تصحو الزوجة على صوت صياح أول الهابطين، والذي ضربه حور على رأسه فشجها، فتخرج من الحجرة وفي يدها منجل تغرزه في ظهر ذلك الملثم الذي دخل من باب المنزل قبل أن يطعن حور، بينما حور يصيح:

- ارجعي.. ارجعي.

تبتسم الزوجة وتقف في ظهر حور وهي تصيح:

- لا تخَف؛ ستأتي القرية كلها الآن لحمايتنا.

- أغلقي الباب بالرتاج؛ يبدو أن هناك آخرين فوق السطح.

بينما تغلق الزوجة الباب، يصعد حور إلى سطح المنزل، ليجد قائد مجموعة الملثمين يصرخ على الاثنين الباقيين ليهجما على حور. يقف حور مستعدًّا وهو يتلاعب بالشومة بين يديه، بينما يصدم الصوت أذنه فيحاول أن يميز صاحبه. قبل أن يتحرك أحد، ينطلق سهم ليردي أحد المهاجمين قتيلًا، بينما يرتفع صوت أهل القرية وهم يقتربون بسرعة من المنزل. يرى قائد المجموعة أن مهمته لن تنجح، فيقفز من على سطح البيت ليهرب، فتلتوي قدمه تحت جسده لتصدر عنه صيحة ألم، لكنه يتحامل على نفسه ويهرب مسرعًا داخل الغيطان، بينما يرشق سهم آخر في رقبة آخر المهاجمين.

*****

تفيق من خدرها، تفتح عينيها، يرتج جسدها ارتجاجًا عنيفًا بينما هي نائمة على وجهها ويداها مربوطتان بالحبال وراء ظهرها. تحاول أن تميز المكان والرائحة، فتأخذها ذاكرتها للطفولة البعيدة، عندما جاءت في الهودج.

تصيح، تصرخ بلا فائدة، تسمع أصواتًا أخرى متداخلة لجمال ورجال ولهجة غابت عنها كثيرًا.

قبل الغروب تقف القافلة الصغيرة. يفك أحد الرجال الملثمين وثاقها، ويأمرها بالجلوس بجوار الناقة التي تحمل هودجها. تقترب امرأة متشحة بالسواد لتعطيها جرعة ماء.

- أمي؟ هل أنتِ أمي؟

- .....

- واخديني لفين؟ أنا الملكة نفرت؛ واخديني لفين؟!

تقوم نفرت بسرعة وتنقض على المرأة محاولة نزع غطاء رأسها، فيسرع الرجل الملثم ليمسك بها ويبرك فوقها على الأرض، ثم يوثق يديها ويغمي عينيها.

بعد أيام من الرحلة، خارت قوى نفرت تمامًا، فقامت المرأة بنزع ثيابها الملكية وإلباسها ثوبًا مهلهلًا وهي تقول:

- سنبيعكِ اليوم في سوق النخاسة.

لم تصدق نفرت نفسها وهي تُدفع دفعًا وسط وصيفات القصر الملكي المستسلمات لقدرهن والمعروضات للبيع كجوارٍ وعبيد في سوق نخاسة أرض الرمال.

وها هو النخاس الأكبر يستبيح جسدها بكلتا يديه، يعاينها ويفرزها ليُثمنها، فتقول له نفرت بصوت واهن:

- هل تعرف من أنا؟

فيرد النخاس بصوت أقرب للفحيح:

- طبعًا.. أنتِ نفرت العاهرة.

تذهل نفرت من الرد؛ فكيف عرف النخاس اسمها؟! وكيف تجرأ واستباح زوجة أوزير؟!

وقبل أن تجد إجابة، يبدأ النخاس في المناداة على بضاعته:

"نفرت عاهرة الملوك

تعرف المعازف والغناء

تجيد الرقص وفنون البغاء

من يريد أن يمتطي ملكة

ليصبح ملكًا؟".

ترتفع ضحكات من في السوق، ويبدأ المشترون في تفحص البضاعة بأعينهم وأيديهم، ويبدأ المزاد.

*****

في ليلة غاب فيها القمر، وفي ذلك الظلام الدامس الذي يسبق غزو الشمس، ترسو فلوكة صغيرة عليها شخص واحد على ضفة النهر التي يقع أمامها منزل قائد الجيش. ينزل الشخص من الفلوكة متوجهًا إلى منزل قائد الجيش بثباتِ مَن يعرف المكان، وبدون أي صوت كيلا يسمعه أحد.

يدخل من البهو الخلفي للمنزل، ثم يتجه يمينًا إلى غرفة نوم قائد الجيش.

يشعر قائد الجيش بأن هناك من يجلس بجواره في السرير بهدوء، فيستدير بسرعة ليجد سنوحي.

- مش حتبطل بقى حركاتك دي؟!

فيرد سنوحي بجدية شديدة:

- الملك مات مسموم.

يفرك قائد الجيش عينيه ويقول:

- مش معقول!

- أنا لاحظت لون غريب تحت ضوافره، وشرَّحت الجثة واتأكدت.

- حد غيرك عرف؟

- لأ.. أنا أول ما شكيت في الأمر طردت المساعدين وقلت لهم إني عايز أحنط الملك لوحدي. فيه حد حط للملك سم في الجعة اللي كان بيشربها على البحر.

- مين؟ وليه؟!

- هل فيه أي تحركات مريبة على الحدود؟

- أبدًا. كل شيء هادي جدًّا.

- بحري رجع إمبارح.

- ..... وده معناه إيه؟

- لحق يعرف إن أوزير مات إزاي؟!

- نفرت كمان اختفت هي وكل وصيفات القصر.

- أنت بتقول إيه؟! يعني أنت عايز تقول إيه؟!

- خبر، كنت عايز بس أقول لك خبر.

- أنا حأراجع كل القلاع علشان نطمن على أحوال الحدود.

- تمام، بس الملك ما ماتش عَ الحدود، اتقتل من جوا أرضه، جوا بيته وقصره.

- خلي الكلام ده بينا لحد ما نعرف الحكاية كلها.

وكما جاء سنوحي، عاد.

*****

الفصل الثالث

البنايين

خيم الحزن على البلاد، وبدأت الإشاعات والتكهنات وأحاديث البنايين المتجمعين في سوق التلات:

"مين حيحكم البلاد؟".

"الست عجزت وما تقدرش".

"طاب وما له بحري؟!".

" لأ.. بحري لأ؛ ده قاتل وهارب، وكمان من الشرقيين".

"هو حور فين؟ مش حييجي دفنة أوزير؟ مش معقول!".

"تفتكروا ملك الرمال ينتهزها فرصة ويهجم علينا؟".

"والجيش فين؟".

"وتحوت فين؟ إحنا دلوقت محتاجين للحكمة أكتر من القوة".

"وحور مايحكمش ليه؟ ده برضه ولي العهد؛ يعني ملك من ضهر ملك".

"أنا سمعت إن الست راحت قصر الواحة".

"أيوه، ده حتى الوصيفات والحرس مشيوا".

"ونفرت اختفت.. القصر بقى مهجور".

"بيقولوا إن بحري بيطهّر الست والقصر كله!".

"من إيه؟! دي أطهر من اللي جابوه. ويطلع إيه القاتل الهارب ده علشان يطهّر الست؟!".

"بيقولوا بقى كاهن دلوقت، وبيتكلم مع رب الشرقيين".

"هم الشرقيين طلع لهم رب؟! هههههه! دول شيوخ منسر ونصابين".

"ما هو شعب الرمال راخر له رب وله كاهن".

"مش ده الكاهن النخاس اللي كان بحري عايش عنده؟!".

"أيوه، ما هو اتجوز بنته... والظاهر نضحوا على بعض! هههههههه".

*****

المتاهة

لم تمضِ أيام على وجودهم في قصر الواحة، وها قد راودتها الهواجس:

"أين وصيفات القصر؟ وأين الحرس الملكي؟ وأين نفرت؟ الكل اختفى، حتى سنوحي اختفى. وأين تحوت؟ ألم يعلم بوفاة أوزير؟! لمَ لم يأتِ ليعزيني؟! لمَ لا يأتي أحد؟! فقط هوديت وبحري والقليل من الخدم الذين لا أعرفهم ولم أرَهم من قبل. حتى الحرس المحيطون بالقصر لا يرتدون ثياب القصر ولا أعرفهم! ولمَ يأتمرون بأوامر شاران؟! لماذا أشعر بأني حبيسة؟ ماذا يحدث في البلد؟! وماذا سيحدث بعد وفاة أوزير؟".

- مليكتي.

رنين الكلمة أخذها لماضٍ بعيد، فأغمضت عينيها لترى حور وأوزير وهما يدخلان عليها باسمَين.

- ... مليكتي.

تلتفت على صوت بحري، ثم تبتسم وهي تقول:

- ياه! قد إيه وحشتني الكلمة! قد إيه وحشني حور! كنت أول ما أفتح عيني الصبح ألاقيه قدامي يقولهالي.

يتغير وجه بحري، ثم يجلس أمام الست ويضع عينيه في عينيها وهو يقول:

- وأهو سابك ومشي علشان يعيش حياته، وما رجعش، ومش راجع. وأنا اللي رجعت لك.

تشعر الست بغضب بحري ونبرة الغيرة الواضحة في صوته:

- يا بني أنا طول عمري بأعاملكم زي بعض.

- لأ. طول عمرك بتفضليه.

- يا بني أنا كنت حأموت علشانك، وضحيت ببنتي..

يصيح بحري في الست بغضب:

- بنت أوزير.

يفاجئ الست صياح بحري في وجهها، وهي التي لم تعتَد ذلك من أحد قط، فتصمت برهة لتتمالك نفسها، ثم تقول بهدوء:

- وأنت طول عمرك بتغير من أوزير ومن حور، ومن أي حد تحس إنه حياخد ولو حتة من اهتمامي بيك.

- قصدك اهتمامك بالأعرج ابن الشرقيين، اللي مش قادر يتحرك. مجرد عطف على واحد عاجز! تقدري تنكري إنك كنتي بتحبي حور أكتر مني؟!

تبتسم الست وتضع يدها على خد بحري لتهدئه:

- حور ده ابن بطني.

يضرب بحري يدها بعيدًا عنه بكل قوة، ويصرخ متهجمًا وهو يشوح بيديه في وجهها:

- وأنا ابن إيه؟ ابن الطوف، اللقيط اللي حيخلي شكل القصر حلو وشكل أوزير طيب ورحيم وملك عظيم، والا اللي حيخلي الست رمز الرفق بالمساكين وأولاد الهوى.

ترتد الست إلى الخلف وهي تنظر إلى بحري في خوف وقد فغرت فاها، ثم ترتد نظرتها إلى الأرض غير مصدقة مدى الضعف الذي أصبحت فيه، ومدى الشراسة التي أصبح بحري فيها. يتنبه بحري للأمر؛ فيقترب منها ليحتضنها وهو يقول:

- آسف يا أمي، آسف. اعذريني؛ أنا تعبان جدًّا ومرهق، آسف. أنتي مش عارفة السنين اللي فاتت دي عدّت عليا إزاي؛ وحيد، مطارد، وتايه، ويا دوبك قادر أعيش يومي؛ ضواري الصحرا نهشت لحمي، وضواري الهم نهشت عقلي.

ينحني بحري ليُقبل يد الست التي انكمشت داخل روحها، بينما يشيح بحري بوجهه، ثم يلتفت لينظر في عينَي الست وهو يقول بتأثر شديد:

- آسف يا أمي. بس أنتي معيني الوحيد في الدنيا دي من يوم ما اتولدت. ولولاكي، ولولا رب الشرقيين، كان زماني مت من زمان. أرجوكي اقبلي اعتذاري.

يقوم بحري ليخرج مسرعًا، بينما تدخل هوديت التي كانت تراقب المشهد، فتشيح الست بوجهها لتمسح دموعها حتى لا تراها هوديت.

- اوعي تزعلي من بحري أبدًا، ولا تعيطي أبدًا أبدًا. ده أنتي ست الستات، وحتفضلي طول عمرك ست الستات. بس أنتي عارفاه عصبي وحمقي من يومه، من ساعة كمان ما بقى بيكلم رب الشرقيين وهو بقى مش طايق حد ولا طايق روحه حتى، بقى حاسس إن الدنيا كلها وقعت على كتافه ومطلوب منه يعدلها، وكمان حيتجنن علشان يساعدك ويساعد المملكة وهو يا حبة عيني ماحدش بيساعده خالص.

تنظر الست إلى هوديت في عدم فهم. تلحظ هوديت اهتمامًا من الست؛ فتستطرد:

- أنا عارفة إنك طول عمرك بتحبي بحري، وإن روحك فيه. وبصراحة كده، مابقاش فيه حد في المملكة متعلم في القصر ومتربي أحسن تربية وممكن يحكم إلا بحري، وخصوصًا إنه دلوقت بقى واصل بالرب، يعني بقى عارف إيه اللي بيحصل وإيه اللي حيحصل، وإزاي يمنع البلاوي ويطهّر المملكة كلها علشان الرب يرضى عنها.

- أنتي عايزة تقولي إيه؟

- يعني لازم الأول بحري يتطمن إن ماحدش حيحاكمه على موضوع القتل ده. تاني هام: لو أنتي قلتي للناس إن بحري يحكم، خلاص الكل حيسمع كلامك، وهو فيه حد يقدر مايسمعش كلام الست؟! أبدًا! ما عاش ولا كان.

تنظر الست إلى هوديت، ثم تسأل:

- هي إيه حكاية رب الشرقيين دي؟!

يفاجئها السؤال، فتتردد برهة، ثم ترد باسمة:

- اسألي بحري.

تنظر الست متعجبة إلى هوديت، بينما هوديت تستطرد ضاحكة:

- بس شُفتي وشك نوّر إزاي بعد ما حلقتي شعرك؟

*****

واقفًا على أعلى الصاري، ينظر إلى الأفق البعيد حيث ماضيه الذي لا يزال يلاحقه؛ ها هو يعود إلى حيث بدأ، وكأن تلك الأعوام التي مضت لم تكن إلا مجرد حقبة في حياته عاشها كي يعود إلى نقطة البداية مرة أخرى.

- نيجي معاك.

ابتسم حور وهو يقبل رأس نفرتاري مودعًا:

- كان ممكن لو أوزير موجود. لكن موت أوزير، وبعدين الهجوم عليا في نفس الوقت، يعني فيه حاجة غريبة بتحصل.

- أنا خرّجت لك شنطتك اللي جيت بيها.

يضحك حور وهو يقول:

- الملكية؟

- ندمت؟

- أبدًا.. وعمري ما حاندم. لكن لازم أرجع أتطمن على الست، وأحضر جنازة أوزير. لازم كمان أعرف مين حاول يقتلني، وليه.

فيأتيه صوت أبي نفرتاري من الخلف:

- قصدك مين عايز يقتل ولي العهد، وليه.

- أنا نسيت موضوع ولي العهد ده من زمان.

- بس واضح إن فيه ناس تانية مانسيتش. والظاهر إن مجرد وجودك يهددهم ويهدد خططهم.

- ناس طمعانة في الملك؟!

- ناس طمعانة في البلد.. أنا ابتديت أكلم عمد ومشايخ الجنوب؛ على ما توصل القصر حيكون وراك جيش من الفلاحين الأوفياء. أنت ماتعرفش الناس دي مين، وبتدبر للبلد إيه.

يخرج حور من المنزل بعد أن يقبل بناته الثلاثة، ليجد خنجره الملكي موضوعًا فوق حقيبته الملكية، فيلتفت لنفرتاري التي تقول له هامسة:

- خد بالك من نفسك.

ينظر من أعلى الصاري ليرى البحارة السمر الذين يعملون بجد، ويتضاحكون من قلبهم ويغنون طوال الوقت.

"ترى هل هذه هي الحياة؟ أم إن ما أنا ذاهب إليه هو الحياة؟ أين حدود الحلم؟ وأين حدود الواقع؟ هل بالفعل يشكل الماضي مستقبلنا؟ أم إن مستقبلنا الذي نريد الذهاب إليه هو ما يشكل ماضينا؟ هل أنا راجع للست ولأوزير؟ أم للملك والبلد؟ هل أنا تركت الحب للحرب؟ أم راجع لكي أحمي الحب؟".

تخرج من حور زفرة سخرية وهو يتذكر تحوت ومحاوراته التي لا تنتهي معه.

"ترى أين تحوت الآن؟ لا بد أنه في القصر يواسي الملكة ويمنحها ما يعلم من حكمة الحياة والموت".

*****

يشدها من ذلك الحبل القصير المربوط في رقبتها، والذي يلمه في يده مع كل خطوة حتى يصبح أقصر ما يمكن، ليجبرها على السير محنية الظهر تلهث. ونفرت تمد الخطى كي تلاحق خطواته الواسعة السريعة، بينما ظهرها يتقوس أكثر فأكثر مع كل خطوة، وتكاد قدماها الحافيتان تحترقان من لهيب الرمال الساخنة.

يقتربان من منزل مبني بالأحجار والجريد والطين، يقف أمامه حارس واحد أسود اللون ضخم الجثة، فيتركها المرسال وهو يرفع رأسه من أسفل لأعلى، فيرد عليه الحارس بتحريك رأسه من أعلى إلى أسفل.

- أين أنا؟ من الذي اشتراني؟ من خطفني من أرض البنايين؟ هه؟ ما اسمك؟

والحارس الذي ترتسم على وجهه ابتسامة سخرية، ينظر لها ولا يرد.

انتصف النهار، وأصبحت الشمس عمودية تضرب رأس نفرت، التي سال عرقها ليُغرق وجهها وعينيها وهي واقفة أمام الباب خائرة القوى. فجأة خرج ملك الملوك، فارتد الحارس الضخم خطوة إلى الخلف.

- أنتي عبيكه؟

فترد بصوت واهن:

- أنا نفرت، زوجة..

وقبل أن تكمل، يمد يده ليشدها من شعرها بعنف إلى داخل المنزل، فتبدأ في صراخ واهن، فيرميها على الأرض ويُخرج خنجره من غمده ليضعه فوق رقبتها، فتفزع وتصمت لبرهة، فيدس الخنجر تحت ثوبها. تشعر نفرت بنصل الخنجر الحاد على جسدها يدميها، بينما يشق ثوبها إلى نصفين لتصبح دامية عارية. يرفع ثوبه ليمتطيها، فتصدر عنها شهقة فزع، فيمسك رقبتها بيده اليسرى ويضع الخنجر الذي يقطر دمًا في فمها بيده اليمنى، فتصمت تمامًا وتجحظ عيناها، فيخترقها.

*****

النبوءات

يدخل شاران على بحري وهو يعرج ليُنبئه بالأخبار، فيصيح بحري ثائرًا:

- ما ماتش؟!

فيرد شاران:

- أهل مراته أنقذوه.

يتقدم بحري في فورة غضب جامحة ناحية شاران، وهو يصيح:

- أنت عارف ده معناه إيه؟

- .....

- كده بقى فيه ولي عهد شرعي.

- ده تحول لفلاح مالوش...

- ده ابن أوزير، والبلد كلها فلاحين؛ يعني لو دخل بكرة القصر، حتضيع البلد مننا.

- مش لو جه؟! هو عارف دلوقت إن أبوه مات، وإن فيه ناس عايزين يقتلوه.

- وده معناه إيه يا ذكي؟

- إنه ممكن يخاف وما يرجعش، وهو أصلًا زاهد في الحكم؛ يعني حيرجع ليه؟

- يخاف؟! أنت تعرف عن حور إنه بيخاف؟! وبعدين زاهد ده لأن أوزير كان موجود، دلوقت حيسيب الحكم لمين؟ ليا أنا؟! أنت مجنون والا عبيط؟!

- بطل صريخ بقى واتطمن؛ أنا رجالتي في كل حتة، وقبل ما يدخل المدينة حيكونوا خلصوا عليه.

يصمت بحري ليفكر برهة، ثم يقول:

- لازم نركّع البنايين قبل ما حور يوصل، لازم وجوده يبقى زي عدمه.

- حتعمل إيه؟

- أنا مش حأعمل.. رب الشرقيين هو اللي حيعمل.

تبدو على شاران علامات عدم الفهم والتعجب، فيصمت برهة ثم يقول:

- على فكرة، ملك الملوك بيشكرك على الهدية الملكية الثمينة.

- عمره ما كان يحلم يلمس وصيفات القصر، ودلوقت امتلك مراة أوزير.

- هههههه! أهي في الأول والآخر بنت عمه ويعمل فيها اللي يعمله.

- ابعت قول له يستعد؛ حنحتاج له في خلال أيام.

*****

- في إيدنا إيه دلوقت نعمله؟

يتساءل سنوحي، بينما يضع تحوت رأسه بين يديه ويزفر ما في صدره وكأنه يريد أن يتخلص من حمل ثقيل.

- كان لازم أحتوي غضبي وأتعامل مع أوزير بشكل مختلف.

فيرد حورمحب:

- هو إحنا جايين نعدد والا نتحرك؟! أنا سمعت كلامكم ولام الجيش، ومش راضي أتدخل لحد ما سيادتكم تتفقوا.

فيرد سنوحي:

- تدخل مع مين؟ أو ضد مين؟ هو إحنا لسه فاهمين حاجة؟!

فيرد حورمحب:

- أنا عرفت إن فيه ناس هجموا على حور وكانوا عايزين يقتلوه، وإنه جاي على هنا. وعملت عليه حراسة من غير ما حد يعرف، ولا حتى هو حيحس، يعني خلاص ماحدش حيقدر يلمسه.

تلمع عينا سنوحي وهو يقول:

- حور جاي! يبقى خلاص اتحلت.

فيقول تحوت:

- لحد ما يوصل مش عارفين حيحصل إيه.

فيقول حورمحب:

- يعني أنا أعمل إيه؟ أنا صبري نفد.

فيسأل تحوت:

- ما عرفتش مين هجم على حور؟

- للأسف كلهم ماتوا، والوحيد اللي نجي هرب.

- هي حالة الجيش إيه؟

فيرد حورمحب:

- زفت.. ما أنت عارف أوزير سرح تلات ترباع الجيش وكان عايش آخر أيامه في وهم السلام والتسامح، والبنايين كمان عاشوا في وهم الرخاء والازدهار ومابقوش بيوَدُّوا عيالهم الجيش. المهم أنا مطلوب مني إيه دلوقت؟

فيقول سنوحي:

- مافيش في إيدنا حاجة لحد ما نعرف ونفهم مين العدو وبيخطط لإيه. كمان لازم نحافظ على الموجود من الجيش.

فجأة يرفع تحوت رأسه ويسأل:

- هي الست فين؟

*****

ها هو العكاز يدب على الأرض من جديد، معلنًا رحلة بحري الليلية إلى قلب الجبل، رحلة يعود منها منهكًا مشعثًا مغبرًا زائغ العينين تائهًا عمَّا يدور حوله، وما إن يعود إلى القصر حتى يرمي عكازه

ويستلقي نائمًا تحت بقعة الظل الكبيرة التي توفرها أشجار الحديقة الضخمة.

قامت الست من سريرها، لبست صندلها وتلفحت بشالها، وخرجت من غرفتها وهي تتلفت كي تتأكد أن لا أحد يراها.

كان القمر هلالًا لا يوفر إلا نورًا خافتًا على رمال الصحراء، لكنه كان كافيًا لترى الست شبح بحري وتتتبعه فوق بحر الرمال.

"ترى ماذا يفعل بحري في الجبل كل ليلة؟ هل هو حقًّا يقابل رب الشرقيين ويتحدث معه؟ ترى ما شكل رب الشرقيين هذا؟ هل هو حقًّا يخبر بحري بكل ما هو ماضٍ وكل ما هو آتٍ؟ ترى...".

راودتها كل أنواع الأسئلة، ومنت نفسها بالإجابة، تحسست خنجرها الملكي لتتأكد أنه في إزارها تحسبًا لضواري الصحاري، لمست يدها دمها المتخثر على مقبض الخنجر؛ فتذكرت شعرها المتساقط الدامي وروحها المسلوبة منها.

وصل بحري إلى بطن الجبل، وبدأ شبحه يختفي ويظهر وهو يصعد ذلك الممر الضيق الذي يحف الجبل ولا يتسع إلا لشخص واحد.

تصعد الست خلف بحري في مسار دائري متعرج، محاوِلة ألا تقترب وألا تصدر صوتًا، بينما صوت العكاز يدوي أمامها فيرشدها ويُعلِمها بأنها في المسار الصحيح، يلتف الطريق أكثر فأكثر لتجد الست نفسها في ظلام دامس بين جبلين لا ينفذ ضوء القمر من خلالهما. تبدأ الست في السير ببطءٍ مَن لا يرى موطئ قدمه ولا يعرف الطريق، كل

ما تعرفه أنها أصبحت على ارتفاع شاهق وأن صوت العكاز يتباعد ويخفت، تمد الست يدها اليسرى لتتحسس الجبل على يسارها، بينما تتساقط بعض الأحجار الصغيرة من على يمينها في تلك الهاوية السحيقة التي تحدها الجبال من كل جانب.

يختفي صوت العكاز تمامًا، مما ينبئ على وصول بحري إلى مكان اللقاء. فتتوقف الست برهة، ثم تتقدم ببطء شديد في عتمة كاملة. وفجأة تسمع صوت بحري الجهوري صارخًا يتردد صداه بين الجبال الغارقة في الظلام:

"ربي.. رب الشرقيين

ها أنا أفعل ما أمرتني

ها أنا أنفذ خطتك ومبتغاك

ورغبتك في رفع الشرقيين إلى أعلى عليين

وها أنت تغيب عني وتتجاهلني

ربي".

يبدو صوت بحري مهيبًا، فتتسمر الست في مكانها، وترتد بجسدها حتى يستند ظهرها على صخور الجبل الصماء المعتمة.

فجأة ترتفع ألسنة لهيب ضخمة من بين الجبال، فتصبح الظلمة نورًا يغشى الأبصار. ترتعب الست وتخطو إلى الخلف، فيصدها الجبل، فتبدأ في الحركة على الممر الضيق لتتراجع للخلف، وفجأة ترى بحري محلقًا وسط الجبال بين لهيب النيران المستعرة، مغمض العينين رافعًا

يديه إلى السماء وكأنه يبتهل إليها، بينما النار لا تحرقه ولا تحرق ثوبه. تصدر شهقة خوف ودهشة من صدر الست، يفتح بحري عينيه ويلتفت إليها غاضبًا بعينين تطلقان شررًا. ترجع الست بظهرها على الممر، فتزل قدمها وتسقط إلى الهاوية.

*****

تجلس في الحديقة الصغيرة لقصر الواحة، تنظر إلى بحر الرمال المفرود أمامها، وإلى تلك السلسلة الضخمة من الجبال الشاهقة، والتي تبدو في شبورة الصباح الباكر كأسنان وحش خرافي مرعب. ألم شديد يجتاح جسدها بالكامل، قدماها يشويهما الاحمرار كمن سار حافيًا على الأحجار طويلًا، عظام جسدها تؤلمها كمن سقط من عل وتدحرج جسده فوق الصخور، لكن لا جراح.. ولا ندوب.. ولا آثار حريق! لا يوجد على جسدها إلا ذلك اللون الأزرق الذي يشكل آثار كف بحري على رسغها أثر تلك الضربة العنيفة التي أطاحت بيدها.

"ترى هل كان هذا حلمًا؟ أم إنها رؤيا كتلك التي تجتاح بحري فلا يعرف الخيال من الواقع؟! أم إن هذا خرف العجائز؟".

تمسح قطرات العرق التي بدأت تتراكم على الزغب الأبيض الصغير الذي بالكاد بدأ ينبت في رأسها، فتأخذها الأفكار المختلطة المتضاربة:

"آه! كم كان أوزير يعشق شعري الطويل المنسدل على كتفي! كم كان يعشق رائحته بعد خروجي من البحر! كم كان يعشقني! ما زلت أذكر أول يوم، وأول لمسة، يوم قال لي أحبك، ويوم غاب، لم يكن يبدو عليه

أي تعب، كنت أرقبه من خلف ستائر نافذتي كل يوم وهو يجلس وحيدًا بعد مشواره الصباحي مع سنوحي، كم كان جميلًا بشعره الذي أصبح بلون الفضة اللامعة! كم كان قويًّا ومَهيبًا! لم يشكُ يومًا من مرض. أليس غريبًا أن يأتيه الموت هكذا؟! وأين اختفت نفرت؟ والوصيفات؟ وحراس القصر؟".

مع بدء انقشاع الشبورة يبدو بحري بمشيته المتأرجحة ووشاحه الملون المميز، وكأنه يشق الضباب خارجًا من بطن الجبل ومخترقًا بطن الصحراء، ليتجه صوب الست.

يقترب بحري أكثر فأكثر وهو يهرول بأقصى سرعة يسمح بها عكازه الخشبي، فتشعر الست بأن شيئًا ما قد حدث. يجتاز بحري الحديقة الصغيرة في خطوات، ثم ينهار على الأرض أمام الست واضعًا رأسه في حجرها، ويقول لاهثًا متهدجًا، وقد انسابت الدموع من عينيه:

- رب الشرقيين غاضب، رب الشرقيين غاضب.

- إيه اللي حصل؟

- كلمني إمبارح.

فترد الست مندهشة.

- مين؟

يرفع بحري رأسه لينظر في عينَي الست، فترى دموعه الغزيرة وقد بللت لحيته، فتضطرب بينما بحري يقول:

- لازم نحاول ننقذ شعب البنايين، لازم. ساعديني يا أمي، ساعديني.

- ننقذهم من إيه؟ من مين؟

فيستطرد بحري كأن لم يسمعها:

- أنتي متخيلة غضب الرب عامل إزاي؟!

فترد الست بوجل:

- طاب نعمل إيه؟

- البنايين مش حيسمعوا حد غيرك. لازم تكلميهم.. لازم.

*****

ذاع الخبر في المدينة. وها هي الست تخطو بخطوات وئيدة في الساحة الكبرى، ويخطو خلفها بحري بثيابه العجيبة الملونة. احتشد شعب البنايين ليسمعوا الست التي صعدت سلالم المكتبة الكبرى بصعوبة كبيرة، مستندة على بحري.

رفعت الست يدها، فران الصمت على الساحة، وسكت الجميع حتى يصلهم صوت الست الواهن:

- بعد أيام، حنحضر كلنا جنازة أوزير.

وزي ما أنتم عارفين؛ الاستقرار والازدهار كانوا هَمّ أوزير دايمًا؛ علشان كده عمل السلام، وعلشان كده عشنا كلنا في ازدهار سنين طويلة. لكن أوزير مات فجأة... ومن حظنا إن بحري رجع.

يرتفع صوت من وسط الجموع، صارخًا: "قاتل".

ترفع الست يدها، فيصمت الجميع مرة أخرى، فتكمل:

- أنا استسمحت أهل برعو وطلبت منهم يقبلوا الدية.

فيرتفع صوت آخر صارخًا: "الدية دي هناك في مملكة الرمال. إحنا هنا عندنا العدل".

تبدأ دموع الست في النزول وهي ترى الحشد يتململ مما تقول، فترفع صوتها قدر استطاعتها وهي تقول:

- أرجوكم.. أرجوكم اسمعوني.

رب الشرقيين غاضب.. رب الشرقيين غاضب.

تبدو علامات التعجب على وجوه البنايين الذين يصدمهم كلام الست، التي تستطرد:

- رب الشرقيين غاضب وحيعاقبنا لو ما استجبناش لطلباته.

فيأتيها صوت ساخر من وسط الحشد:

- وغضبان ليه بقى بسلامته؟

لا تجد الست ردًّا، فتصمت برهة لتحاول لملمة أفكارها ومشاعرها، بينما الحشد يتململ غضبًا، ثم يصيح أحدهم:

- وإحنا مالنا ومال رب الشرقيين؟

فيصرخ بحري في هياج:

- رب الشرقيين هو ربكم جميعًا.. رب الشرقيين هو ربكم جميعًا!!!.

فيرد أحد البنايين:

- وليه ما يكونش رب الرمال هو ربنا؟

يرتفع ضحك البنايين، بينما يقول آخر هازئًا:

- إحنا نقسّم نفسنا بقى؛ شوية يبقوا تبع رب الشرقيين، وشوية تبع رب الرمال.

تتصاعد ضحكات السخرية، بينما ينظر بحري إلى الأرض ثم يرفع رأسه ويديه إلى السماء، ويصرخ بصوت جهوري وقد انتفخت أوداجه ونفرت عروقه وجحظت عيناه:

- وزّيهم قدرتك.. وزّيهم قدرتك.. وزّيهم قدرتك.

ثم يرفع بحري عباءته فجأة إلى أعلى ويضمها على جسده، فيختفي تمامًا.

ارتفعت ضحكات البنايين الساخرة من تلك الخدعة التي رأوها من سحرة القرى والحواري عشرات المرات، بينما التفتت الست إلى العباءة الملقاة على الأرض وانحنت ناحيتها وكأنها تبحث فيها عن بحري، فيسقط غطاء شعرها وتظهر للجمع صلعاء تمامًا، فيتردد صوت شهيق البنايين عجبًا وذهولًا، بينما يخرج تحوت من المكتبة مهرولًا ليسند الملكة قبل السقوط.

*****

كوابيس الغضب

تزفر رياح الشرق لهيبًا خماسينيًّا عاصفًا، يطفو بحري في وسط العاصفة مخترقًا حارة الحمالين، تطير حرملته مع الريح، وعيناه الغاضبتان تقدحان بالشرر، يرفع يديه إلى أعلى، فيخرج الشرقيون ساكنو حارة الحمالين من بيوتهم، ملتفين حوله في تلك الساحة الصغيرة التي تقع وسط الحارة، بينما يحل السكون التام والسبات العميق الطويل على البنايين من قاطني الحارة.

يرفع بحري عكازه فيسود السكون، يتحول شرر عينيه إلى لمعة براقة تخترق الصدور، ثم يرفع صوته ويقول:

"يا شعب الشرقيين

يا سادة العالم

يا من اختاركم الرب لتكونوا أولاده

يا خير الشعوب

يا من آمنتم بالرب ووثقتم عهدكم به

أتيت لكم اليوم لأجدد لكم وعد ربكم

بأرض أجدادكم التي تجري من تحتها أنهار اللبن والعسل

فباسم رب الشرقيين

لن تحملوا أثقالًا بعد اليوم
ستحملون ذهبًا
وباسم الرب
لن تُستعبدوا بعد اليوم
ستَستعبدون العالم
وباسم الرب
لن يعتدي عليكم أحد
بل ستكونون أنتم المعتدين
الغزاة الفاتحين
من البحر للنهر
ومن النهر للنهر
ومن البحر للبحر
وعد ربكم لكم
الأرض ورثتموها عن أجدادكم
وكل أرض تطؤها أقدامكم
هي لكم
فأنتم الوارثون
ومن سلالتكم يأتي المُلك العظيم

والمَلك العظيم

فلتسجدوا أمامي لملك السماء

فلتسجدوا أمامي لأمنحكم البركة".

يخر شعب الشرقيين ساجدًا إلا آلاي الذي يتسمر في مكانه متعجبًا.

يظهر ظل ابتسامة على وجه بحري الذي يخاطب آلاي:

- لماذا لا تسجد؟

يقترب آلاي من بحري ويقول هامسًا:

- إيه حكاية رب الشرقيين دي؟

يمد بحري يديه ليضم آلاي داخل حرملته، ويقول له هامسًا:

- ده الرب اللي كنت بتحكي لنا عليه وإحنا صغيرين.

فيرد آلاي متعجبًا:

- هو أنتو صدقتوا؟!

- ولسه مصدقين.

- إنكو المختارين؟!

- والأسياد المبجلين، أصحاب الأرض وجنات النعيم.

فيقول آلاي بصوت هامس يكاد لا يُسمع:

- بس دي كانت حدوتة ملتوتة.

يصمت بحري للحظة، ثم يقول بصوت خفيض ساخر:

- يمكن.. بس لما كلنا نصدقها تبقى حقيقة.

يصمت آلاي ذاهلًا، بينما يستطرد بحري بصوت خفيض:

- أقول لك حاجة غريبة؟ حتى ولاد البنايين صدقوها.

فيرد آلاي ساخرًا:

- زي ما ولاد الرمال صدقوا حكايات برعو.

تصدر ضحكة مجلجلة من بحري، يرتج لها جسده وترتج لها الحارة بالكامل:

- علشان كده أنا عايزك دايمًا تقول وتحكي حكاية رب الشرقيين ووعد الرب المبين، تقول وتعيد وتزيد.

تلمع عينا آلاي، فيتساءل باسمًا:

- طاب وأنا حَستفيد إيه؟

فيضحك بحري ثم يرفع عكازه، فيرفع الشرقيون الساجدون رؤوسهم، بينما ينظر بحري لعيني آلاي ويقول بصوت جهوري جاد وحاسم يسمعه كل الشرقيين:

- أنت كاهن الشرقيين الأكبر، وحبرهم الأعظم، وجدهم الأول. أنت من سنرث منه الوعد والأرض والملك، أنت الوارث الأول.

ونحن أحفادك الوارثون. أنت صاحب الحدوتة الملتوتة، وكلنا أتباعك الطائعون.

ترتسم ابتسامة كبيرة على وجه آلاي، ثم يقول ضاحكًا:

- يا معين.

*****

يرتج الجبل ارتجاجًا بينما شاران يصعد ذلك الممر الضيق المؤدي إلى الكهف الذي يعتكف فيه بحري، تتساقط الأحجار من حوله بينما تتصاعد من بطن الجبال ألسنة النيران المخيفة التي لم تتوقف منذ الأمس، والتي يبدو أنها لن تتوقف حتى يهدأ غضب رب الشرقيين.

كم انتظر شاران هذه اللحظة! كم جهز لها من عتاد وعدة وأتباع! فالشرقيون الآن في كل مكان في البلد، كالسوس الذي ينخر في مفاصلها بهدوء وتؤدة، حتى تتآكل الدولة بالكامل وتسقط.

ما يزال شاران يصعد في الممر، النيران على يمينه والجبل على يساره، حتى يجد الممر مغلقًا بكتلة حجرية ضخمة، فيعرف أن هذا أقصى المسموح له، فيقف منتظرًا متلفتًا حوله علَّه يجد إشارة عمَّا يجب عليه فعله، يلف حول نفسه على الممر في حذر، ثم يقترب أكثر من الكتلة الحجرية التي تسد الممر، فيرى عليها كتابة بخط الشرقيين، فيقرأها ويبتسم؛ فها هي ضربة الغضب الأولى، وها هو رب الشرقيين يساعدهم ويسدد خطاهم.

*****

- بس... بس بس بس.

يقف أمام باب المكتبة حائرًا؛ فلأول مرة يختفي القط الأسود الجميل بس، خاصة في موعد الطعام. وطعام اليوم سمك طازج من فضل النهر العظيم، لا بد أن بس قد شم رائحة السمك؛ فما له لا يأتي؟! ولمَ لم تتجمع قطط الساحة التي تشارك بس طعامه كل يوم؟! نزل تحوت سلالم المكتبة الكبرى متعجبًا من اختفاء القطط من الساحة بالكامل، فأخذ يلف الساحة والشوارع المتفرعة منها وهو يمسك طبق بس الذي يتدلى منه ذيل السمكة الطازجة وهو ما زال ينادي:

- بس.. بس.. بس بس.

"غريب اختفاء بس! والأغرب منه اختفاء كل قطط الحي! شيء مريب يحدث! آه! ما لي أُضخم الأمور هكذا؟! فلأترك طبق بس على سلالم المكتبة، ولأذهب لأطمئن على الست".

نائمة منذ الأمس وكأنها فاقدة للوعي، تتقلب في ذلك السرير الصغير الذي كانت تنام عليه سيشات زوجة تحوت، والكائن في تلك الحجرة الصغيرة المطلة على النهر الكبير. ينظر تحوت إليها، فيراها وقد فقدت الكثير من وزنها واكتسبت الكثير من هموم الدنيا، يرفع الطرحة عن رقبتها فيفاجأ بذلك العرق الغزير الذي يضخه جسدها المتهالك والذي يبلل السرير بالكامل، يضع يده على رأسها ليتأكد من أنها غير محمومة، يخفف من عليها الغطاء، يسدل الستائر ويغادر الغرفة مغلقًا الباب بهدوء حتى لا تستيقظ.

ينزل إلى باب المكتبة الكبير ليجد السمكة في طبق بس كما هي، فيهز رأسه متعجبًا متسائلًا.

*****

في ليلة غاب فيها القمر

وشعب البنايين يستعد لنهاية اليوم

ممنيًا نفسه بغد أفضل

يملأه العمل والبناء والبهجة

يزخر بالفن والإبداع والجمال

والسلام

ومع كل ذلك القلق العجيب الذي سببه غياب أوزير

مع عدم وجود وريث

وظهور بحري القادم من بحر الرمال

ثم ظهور الست المخيب للآمال

ومع ظاهرة اختفاء القطط المريبة

من البيوت والشوارع

ارتفع فجأة صوت صراخ

صراخ القطط

خرج البنايين من منازلهم سريعًا متعجبين

ليروا آلاف القطط المشتعلة تجري هلعة ككتل من النار تجتاح الغيطان

فتشتعل العيدان الجافة، وتتحول الغيطان في لحظات إلى كتل رهيبة من النار

ولم يمضِ وقت كبير حتى نقلت الرياح شرر النار إلى أسطح المنازل وزرائب الماشية ومخازن الغلال

لتتحول حقول البنايين وقراهم إلى شعلة ضخمة من النار لا يستطيع أحد إيقافها.

يجري حور ليصعد أعلى الصاري بأقصى سرعة؛ فهو لم يشهد قط –بل ولم يتخيل يومًا أن يرى– حقول البنايين وبيوتهم وهي تحترق بهذا الشكل المرعب. تحول الليل إلى نهار بفعل اللهيب بينما غطت السماء سحابة رهيبة من الدخان الأسود الخانق، هربت الأمهات بأطفالهن الصغار إلى حافة النهر، بينما حاول الرجال إخراج ما يمكنهم إنقاذه من أبقار وأغنام.

لمعت صفحة النهر بلون اللهيب الأحمر الدامي، وحور لا يرى أمامه على مرمى البصر إلا... حريقًا.

نزل حور من المركب يتبعه المراكبية للمساعدة في إطفاء الحريق وإنقاذ النساء والأطفال، بينما تحولت ضفة النهر إلى ملجأ لأطفال ونساء البنايين الهاربين من لهيب النيران المستعر في منازلهم وحقولهم.

مع نور الفجر بدأت تتضح أبعاد الكارثة؛ حقول بأكملها أصبحت رمادًا، وقرى بأكملها دُمرت، حيوانات احترقت في زرائبها، والعجائز اختنقت في أسِرَّتها.

منهكًا، عائدًا إلى المركب، يكاد حور لا يصدق ما يرى.

"كيف لأحد أن يحرق مخلوقات الخالق؟! ما هي كنية تلك النفس التي تمسك بالقطط لتغطيها بالقطران ثم تشعل فيها النيران؟! ما كنية تلك النفس التي تشعل النيران في نعم الخالق من طعام وحيوان؟!".

مع صعود الشمس إلى كبد السماء، شكَّل البنايين جنازة مهيبة جابت البلاد طولًا وعرضًا. وقبل الغروب كانوا قد بدأوا في إصلاح بيوتهم وحرث حقولهم وتنقيتها من مخلفات الحريق، بينما تتردد في نفوسهم الأسئلة:

فمن فعل هذا؟

وما مصلحته؟

وكيف سيوفرون الغذاء طوال العام وقد احترقت مخازن الغلال؟

وهل لهذا علاقة برب الشرقيين الغاضب؟

*****

لم يستطع حور النوم ليلتها؛ الدخان الأسود يخنقه من ناحية، وضميره يؤنبه من ناحية أخرى:

"ترى هل كان تحوت على حق؟ لماذا لم أساعده؟ ولماذا تنحيت عن واجبي؟ هل فعلًا أخذني العشق؟ أم إني قد جبنت عن حمل المسؤولية؟ هل لم يخطر ببالي إمكانية وفاة أوزير؟ أم إنني قد أرحت ضميري بما كان يردده أوزير دومًا من منعة وقوة البنايين والدولة، فأخليت مسؤوليتي؟".

صوت أقدام حذرة تنزل على سقالة المركب، يتعجب حور؛ فعلى ما يتذكر عاد كل البحارة معه، يختفي صوت الأقدام ليتحول إلى صوت سقوط في الماء مع صرخة مكتومة. يحاول حور الخروج من الخن، فيفاجأ بيد قوية تدفعه لأسفل كي تمنعه، وصاحبها يهمس في أذنه:

- هششش، ما تتحركش؛ دول جايين يقتلوك.

ينظر حور ليجد أحد بحارته الأشداء وهو ممسك بخنجر ويشير إليه بالبقاء في مكانه، بينما يرى ظل معركة تحدث بين السقالة والمرسى على الأرض؛ نحو عشرين شخصًا يتقاتلون حتى الموت، استطاع حور أن يميز من حركتهم مجموعتين: واحدة تقاتل بشراسة وعنف، بينما الأخرى تقاتل بشكل منظم مدرب يشبه كثيرًا ما كان يراه من حراس القصر.

- ما تقتلوهمش كلهم؛ عايزين واحد حي.

هكذا صاح البحار الذي وقف يحمي حور، والذي بدت لهجته كلهجة قائد صارم لا بحار حالم.

انتهت المعركة سريعًا، وتم القبض على أحد المهاجمين حيًّا، وتقييده وتكميم فمه.

يبتسم البحار وهو يقول:

- دلوقت حنعرف مين اللي عايز يقتلك، ماتخافش؛ فيه مجموعات حتحميك لحد ما توصل القصر.

*****

يرتج الجبل ارتجاجًا بينما شاران يصعد ليعرف من الرب ضربته الثانية. كم كانت الأولى موجعة! كلما تذكر هرولة البنايين وهلعهم، فرح قلبه وندت ابتسامة رضا على وجهه. كم أسعده منظر الأرض التي تنفث دخانًا أسود! كم ابتهج لصوات النساء وهن يحتضن أبقارهن المحترقة! كم كان رائعًا أن يشاهد منازل البنايين وقد تحولت إلى رماد!

"ترى ما هي ضربة الرب الثانية؟"، يبتسم شاران وهو يفكر ويتخيل.

ومع الظهر جاءت..

غامت الشمس

ساتر رهيب من الرمال حجب الشمس

ساد الفزع أرض البنايين وهم يرون السماء وهي تتحول إلى اللون الأصفر

وساتر الرمال يتقدم من بعيد ليتحول إلى دوامة ضخمة رهيبة من الرمال المسننة

الكل جرى ليختبئ في البيوت

ارتجت الأرض ارتجاجًا، وبدأت التماثيل الضخمة تترنح وتتمايل وتتحطم

تشققت أعمدة البرابي، وتهدمت بيوت الحياة

وتحولت الرمال إلى شفرات حادة تمحي كتابات البنايين وقصصهم وأساطيرهم وعقائدهم وعلومهم وأفكارهم من على الجدران.

الدوامة تلف، والكتابة تُمحى، الأحرف تموت، وتاريخ البنايين يندثر.

*****

تقف عربة سيشات أمام سلالم المكتبة الكبرى، تنزل سيشات مهرولة وخلفها اثنان من المساعدين يحملان صندوقًا خشبيًّا كبيرًا ويصعدان سلالم المكتبة في عجل.

يضع المساعدان الصندوق في باحة المكتبة الداخلية، بينما سيشات تصدر أوامرها بكل حزم ودقة، فينطلق المساعدون إلى أرفف المكتبة التي تشير إليها سيشات ليحملوا بعناية ما فيها من كتب ولفائف البردي ليضعوها في الصندوق.

ينتبه تحوت إلى صوت سيشات وإلى الحركة العنيفة في المكتبة، فينزل مسرعًا من غرفته إلى باحة المكتبة ليحتضن سيشات التي لم يرَها منذ بدأت رحلته مع حور.

- حبيبتي.

تستسلم سيشات لحضن تحوت وتغمض عينيها وكأنها قد وجدت ملجأها الروحي أخيرًا، يشعر تحوت بجسد سيشات ينتفض وكأنها مصابة بالحمى:

- إيه اللي بيحصل يا تحوت؟ إيه اللي بيحصل؟ أنا مرعوبة! تاريخنا بيتمحي من على الجدران، وعلومنا بتضيع!

فيهمهم تحوت وكأنه يكلم نفسه:

- وأرضنا كمان بتتحرق.

فتستطرد سيشات:

- ومعظم علمائنا وحكمائنا ماتوا تحت أحجار البرابي وبيوت الحياة، أنا حآخد اللي أقدر عليه وأبحر للشمال لحد ما نعرف إيه اللي بيحصل.

- وبعدين؟

- ما أعرفش. لكن لازم أحافظ على اللي أقدر عليه. لا يمكن أسيب حضارتنا تنتهي ببساطة كده.

لم يجد تحوت كلامًا؛ لأول مرة يجد نفسه عاجزًا عن إيجاد حلول! وحتى إن كان لديه بعض القناعات عن أسباب ما يحدث، وحتى لو كان

قد حاول وعارض وتكلم وتعرض للزجر والتهميش؛ فإن هذا لم يوفر حلولًا. أيام مرت وهو يلوم نفسه عمَّا كان يجب أن يفعل ليظل ميزان العدل قائمًا وعادلًا، ولتبقى قيم البنايين وقصصهم نابعة من ضمائرهم وتاريخهم. كم قال! وكم غضب منه أوزير! كم حذر من قوة الجهل الغشوم التي تأكل الأخضر واليابس! كم! وكم يشعر بالخيبة وبألم الفشل يعتصره!".

يلف جسد سيشات بيديه علَّها تهدأ:

- اعملي اللي عليكي يا سيشات.

- أنا ح أسافر حالًا. ما أعتقدش إن فيه وقت كبير. حاسب على نفسك.

تنزل دموع سيشات وهي تغادر، خلفها مساعدوها وهم يحملون الصندوق الخشبي، بينما يقف تحوت في ذهول عاجز.

*****

يقف تحوت وسنوحي مذهولين، بينما حورمحب يفضي إليهما بالخبر:

- الشرقيين.

فيرد سنوحي:

- مش معقول! وبيعملوا كده ليه؟!

يلتفت حورمحب إلى تحوت وهو يقول ساخرًا:

- ربهم طلب منهم كده! قريت كتابهم؟

ينظر تحوت إلى حورمحب متعجبًا، فيلقي محب بمجموعة من الأوراق إليه. وقبل أن يبدأ تحوت في تفحصها، يدخل أحد الحراس مسرعًا ليهمس في أذن محب الذي يمتقع لونه. يشير محب للحارس بالانصراف، ثم يقول:

- ملك ملوك الرمال اتحرك بجيشه وبقى على مسيرة يومين تلاتة من المدينة.

فيقول سنوحي محتدًّا:

- واتفاقية السلام؟! وإزاي ماوصَلّناش تنبيه من الحاميات؟!

- الحاميات كان كل اللي فيها مرتزقة، مش من البنايين، والظاهر اشتروهم بالدهب أو بالوعود.

يقوم حورمحب على الفور ليضع حلة الحرب، ويمضي خارجًا وهو يقول:

- حأجمع البقية الباقية من الجيش، وحأطلع أدافع عن المدينة.

فيقول سنوحي:

- طاب والشرقيين؟

- حاولوا تحتووهم لحد ما أرجع.

*****

مع شروق الشمس ظهر جيش الرمال في الأفق.

قرر حورمحب التمترس في المكان انتظارًا لقدوم جيش الرمال الذي لا يعرف عنه شيئًا. وجيش الرمال يقترب أكثر فأكثر في كل ساعة.

"من أين أتوا بكل هذه الجنود وكل هذا العتاد والعدة؟! يبدو أنهم يُحضرون لهذا اليوم منذ توقيعهم لمعاهدة السلام!".

لم تعد الأفكار تغني شيئًا، ولا تعني شيئًا لحورمحب؛ فها هو يواجه جيشًا يفوقه عددًا وعدة وشراسة، جيشًا يمتلك الكثير من قوة الجهل الغاشم، جيشًا جائعًا يمني نفسه بالأرض والسبايا والغنائم، وليس لديه ما يخسره؛ فمن خلفه صحراء جرداء ومن أمامه جنة الأرض.

لم يعد لدى حورمحب سوى اختيار وحيد: عدم التراجع ولو شبرًا واحدًا.

مع غروب الشمس، انتهت المعركة؛ وغرق جيش البنايين في بحر الرمال.

*****

خيم الليل بطيئًا كئيبًا ثقيلًا وشعب البنايين في انتظار القضاء؛ فلقد انتصر جيش الرمال وسيستبيح المدينة في خلال ساعات قليلة، ستدب أقدامه على الأرض السوداء مجتاحًا المدينة من المدخل الشرقي إلى النهر المقدس إلى القصر.

أقفل البنايين عليهم أبوابهم، أقفرت الشوارع وانقطعت الأنفاس.

وها هو صوت دبيب أقدامهم يتصاعد، ويتخلله صوتهم الأخنف الغريب ذو اللهجة العجيبة الجهولة. وها هو الصراخ يتصاعد بينًا بعد

بيت؛ فلقد اتفق رب الشرقيين ورب الرمال، وحكما على أطفال البنايين بالموت. وها هو ملك الملوك قد أتى بجنده لينفذ الحكم.

حاصر الجند المدينة، وبدأت مجموعات تدخل بيوت البنايين بيتًا تلو الآخر، تجمع أهل البيت لتضع السيوف والحراب على رقابهم، ثم تأخذ طفلهم الأكبر لتذبحه أمامهم، ثم تلقي بجثته في النهر.

بيتًا بعد آخر، وطفلًا بعد آخر، يشق الصراخ صدور الأمهات، وتشق الحراب صدور الآباء، ويشق الفرح بيوت الشرقيين الذين علَّموا على بيوتهم بالدم حتى يتجنبهم جيش ملك الملوك.

ثلاثمائة ألف طفل ذُبحوا في ليلة واحدة، وألقيت أجسادهم في النهر ليتحول النهر المقدس إلى بحيرة من دم تطفو فوقها جثث أطفال البنايين.

النهاية

يسود الساحة الكبرى صمت معجون بالألم؛ فالمدينة الثكلى تنعى أطفالها الذين ذُبحوا البارحة، الأمهات سارقاهم السكينة، والآباء راكبهم القهر.

وها هو عكاز بحري يشق الصمت بدبيبه الرتيب الكئيب.

يبدو بحري وقد استطالت قامته وفُرد صدره وارتاحت أساريره.

صعد بحري سلالم المكتبة، ثم استدار ليخاطب شعب البنايين بوجه باسم منتصر، قائلًا:

- أهلي وعشيرتي، لقد حذرتكم كثيرًا ولم تصدقوني، رميتموني بالغدر والكذب وما أنا إلا رسول. ولعلكم تصدقونني الآن، فما جئت إلا لأحذركم من غضب الرب، وها أنتم لم تخضعوا؛ وها قد عصفت بكم العاصفة.

يتقدم أحد الشيوخ الطاعنين في السن وكأنه مندوب عن الجميع، ويتقدم بجواره أربعة شباب يحمل كل منهم صندوقًا مليئًا بالذهب، ليضعوها تحت قدمَي بحري، بينما يقول الشيخ:

- إحنا عارفين كويس إنك ما تقدرش ترجّع الأطفال اللي ماتت، لكن أرجوك رجّع البنات اللي سباهم جيش ملك الرمال.

يصمت بحري، ثم يبتسم ابتسامة حانية وهو يقول:

- أحاول أقنع الملك. ولو إن غالبًا على ما أوصل له، يكون النخاس باعهم خلاص.

- أرجوك.

يمد بحري يده إلى الشيخ الكبير ليُقبلها، فينحني الشيخ في مذلة ليُقبل يد بحري الذي يهمس:

- قول: "أرجوك يا سيدنا بحري".

فيردد الشيخ بصوت مخنوق من الذل والدموع:

- أرجوك يا سيدنا بحري.

- لأ لأ.. علّي صوتك كده علشان يسمعوك.

- أرجوك يا سيدنا بحري تقبل الدهب وترجّع لنا بناتنا.

فيرد بحري بصوت عالٍ ليسمعه الجميع:

- ادّي الدهب لسيدك شاران.

يلتفت العجوز إلى شاران، الذي يمد يده للعجوز كي يقبلها.

ثم ينتفض بحري ويلتفت إلى الجمع صائحًا:

- لكن لسه حاجة مهمة علشان تتطهروا ويرضى عنكم الرب.

يصمت الجمع في ريبة وتوجس وخوف، بينما يستطرد بحري:

- المكتبة دي كلها هرطقة وكذب، كلها برديات تحمل أفكارًا تُبعدكم عن الرب وترميكم في أحضان الخطيئة والذنوب، ولازم تتحرق. هذا وإلا فسوف تستمر ضربات الرب.

بعد برهة من الصمت يصيح صائح:

- هاتوا المشاعل. أين المشاعل؟

يزفر بحري زفرة ارتياح، ويقول بلهجة حانية وهو يرفع يده ليُوقف الجمع:

- دعوني أولًا أنقذ معلمي تحوت؛ فهو علمني الكثير، وهو عزيز على قلبي.

يرن عكاز بحري على أرضية المكتبة، بينما ترتسم ابتسامة هازئة ساخرة على وجهه وهو ينظر إلى الأرفف المليئة بلفائف وكتب البردي. يقف برهة متأملًا، ثم يرفع عكازه على الأرفف ليُسقط به اللفائف على الأرض، فتنبسط أساريره ويبدأ في الضحك بصوت يتردد صداه في المكتبة كلها.

- كنت مستنيك.

يلتفت بحري وقد عرف صوت تحوت، فتصدر عنه ضحكة واثقة وهو يقول:

- تعبتني يا معلمي الأول، حكايات وأساطير وعلوم وحكم وفلسفة! هههههه! وجعت دماغي!

فيرد تحوت بسخرية:

- هه! آديك استبدلت بيا كاهن الرمال، وبقيت متصل بالخالق؛ ولا بقى لازمك علوم ولا فلسفة!

تتصاعد ضحكات بحري مجلجلة وهو يقول هازئًا:

- متصل بالإله يا عزيزي.. الإله. بذمتك لو أنت متصل بالإله، حتحتاج علوم والا فلسفة؟

تبدو ابتسامة سخرية على وجه تحوت، بينما يستطرد بحري:

- بص، أنا جاي أعمل بأضلي؛ رب الشرقيين طلب مني أحرق المكتبة وكل لفائف البردي، وأنا طبعًا قلت لازم أنقذ معلمي وحبيبي، عمنا تحوت.

يبتسم تحوت هازئًا، فيكمل بحري:

- الحقيقة شعب البنايين هو اللي حيحرق المكتبة، وحيحرقك كمان لو فضلت جواها.

- طول عمرك حاقد.

فيكمل بحري مبتسمًا وكأنه لم يسمع ما قاله تحوت:

- أنت ومكتبتك حتولع فيكم النار.

- واطي؛ ما تمرش فيك عشرة، ولا تمر فيك الخير اللي غرّقك أنت وأهلك.

- إزاي بقى؟! ما أنا جيت أنقذك آهو، وكمان حأطهر المكتبة بالنار. هههههه. بذمتك فيه وفاء أكتر من كده؟! هههههه!

- همك الأرض والملك.

فيصيح بحري:

- لأ لأ.. همي أنا وشعبي عبادة الرب. والرب عنده كتاب واحد، وشعب واحد؛ علشان كده كل برد‌ياتك لازم تتحرق، وما يفضلش غير كتاب واحد: كتاب الرب. وبعدين الملك ملك الله، والأرض أرض الله؛ يورثها للشرقيين كيفما شاء.

فيرد تحوت ساخرًا:

- من النهر للنهر.

- هه! ومن النهر للبحر، ومن البحر للبحر.

- وكل أرض تطؤها قدماك.

- ده أنت قريت كتاب الرب بقى!

- ....

- هي أرض الرب، يعطيها لمن يشاء. وأنا المختار، الوارث، المتصل، الرسول.

- القاتل، النخاس، الكاذب، الغادر.

تتصاعد ضحكات بحري وهو يقول:

- ده قُصر ديل يا تحوت! بص بره كده؛ الناس كلها معايا؛ شرقيين ورمال وبنايين؛ الكل مصدقني ومصدق حواديتي، وأنت خلاص حواديتك ماتت، وماعادش لك مكان في الدنيا.

ثم يتقدم بحري بسرعة وعنف، ويرفع عكازه ليضرب رأس تحوت، الذي يغمض ويرفع يديه لحماية نفسه، وبدلًا من أن تأتيه الضربة جاءه صوت بحري هامسًا كالفحيح وهو يقول:

- أعتقد إنه من الأفضل إن شعبك هو اللي يموّتك. مش كده برضه؟

يتجه بحري ناحية رفوف المكتبة ليقذف لفائف البردي على الأرض حول تحوت، ثم يخرج من باب المكتبة، ويتوجه للحشد صائحًا آمرًا:

- طهّروا المكتبة.. طهّروا أرض البنايين.

يجلس تحوت وسط أوراق البردي وابتسامة سخرية مريرة ترتسم على وجهه، بينما يندفع شعب البنايين كالقطيع حاملين المشاعل مقتحمين المكتبة الكبرى، ليكوموا البرديات والكتب حول تحوت ثم يضرمون فيهما النار.

يقف بحري في وسط ساحة الأعمدة مبتسمًا، ينظر للمكتبة التي تستعر فيها النيران؛ فها قد أتم مهمته على أكمل وجه، وها قد تحول شعب البنايين إلى مسخ.

"لم يبقَ الآن إلا اقتسام الأرض والغنائم مع ملك ملوك الرمال".

****

جالسًا في نفس البقعة التي جلس فيها جده، شاخصًا بنظره إلى نهر الدم الذي تطوف جثث الأطفال على صفحته، يخترق مسامعه صراخ المدينة المغتصَبة المنتهَكة، تلفه رائحة الدخان منتشيًا بالنصر:

"قر عينًا يا جدي؛ ها قد انتصرنا وملكنا الأرض.. والسماء. بعد يومين سأدخل القصر، أصبحنا الأسياد وسيصبح البنايين مجرد أقنان على الأرض. مُحيت كل الهزائم، وانتهى البنايين إلى غير رجعة. أعدك بهذا؛ انتهوا إلى غير رجعة، ولن يرفعوا رؤوسهم بعد اليوم؛ فلقد محونا تاريخهم وأنسيناهم آلهتهم، وكسرنا نفسهم لتصبح ذليلة خاضعة، أقصى أمانيها أن تنال رضانا. قر عينًا يا جدي".

- أين الولائم؟ هههههه! أين الغنائم؟

يرتفع صوت بحري مجلجلًا فرحًا وهو يدخل على ملك الملوك، مستطردًا:

- ما كنتش تحلم باليوم ده! مش كده؟

- أشكرك يا صديقي العزيز.

- أنا مش عايز شكر، أنا عايزك توفي وعدك ليا بالأرض والدهب والملك.

- وأنا عند وعدي.

- حتدخل القصر إمتى؟

- الجيش سيستبيح المدينة ثلاثة أيام الأول. بعدها حأدخل القصر أنا والملكة نفرت، التي تحمل ابن أوزير في بطنها.

تتسع حدقتا بحري مندهشًا، ثم يقول:

- آه! بقى عندك وريث شرعي! هههه! رائع.. رائع! هههه! طاب وناوي تعمل إيه مع البنايين؟

- لازم يبجولي طالبين الرضا والسماح.

- هههه! أيوه كده! هو ده الكلام.

- هههه! تلميذك.

فجأة يرتسم الجد على وجه بحري ويقول:

- ماتنساش؛ أنا أرضي من النهر للنهر.

- وأنا وعدي وعهدي ليك ولولاد الشرقيين أبدي؛ ترثون الأرض ومن عليها حتى آخر الدهر.

يقوم بحري فجأة، فيخاطبه ملك الملوك متسائلًا:

- على فين؟

فيصمت بحري برهة، ثم يقول:

- رايح أودّع القصر.

- خد بالك؛ عندك يومين بس.

يهز بحري رأسه موافقًا، ويمضي.

*****

ينظر حور من شرفة القصر ليرى المدينة العظيمة وهي تحترق ككرة من لهب؛ يزفر بيأس، بينما ترتسم ابتسامة شاحبة يائسة ساخرة على وجهه.

تبدو له المدينة المحاصرة وهي تختنق؛ طوق من جنود ملك الملوك يخترقها من الخارج للداخل، بينما قلبها يحترق بالنيران وأعمدة الدخان التي تنتشر فيها مخترقة بيوتها وشوارعها وأسواقها من الداخل للخارج. حلقة من اللهيب المستعر تتسع من قلب المدينة، وتأكل كل شيء، وحلقة من خارج المدينة إلى داخلها تغتصب كل شيء.

انهارت جدران المكتبة، وسقطت أعمدة الساحة الكبرى التي كانت شاهدة للنهاية.

التهمت النيران آلاف المخطوطات من أوراق البردي، ولن يمضي وقت طويل حتى تندثر مفاتيح حضارة البنائين وتصعد مع الدخان الأسود إلى السماء.

يسير في طرقات القصر الخالي، يمر من أمام حجرة أبيه الملكية، ثم يخترق صالة العرش المهيبة لينزل الدرج إلى حديقة القصر، آخذًا طريقه إلى قلب المدينة؛ علَّه يفهم، علَّه يعي، علَّه يجد الست.

يقترب من كرة اللهب، يغمض عينيه ثم يرفع رأسه لينظر إلى قمر السماء، وكأنه يلتمس قبسًا من نور يضيء له الطريق.

كم ألف سنة مرت! كم ألف شمس! وكم ألف قمر! وها هو يخترق طرقات المدينة التي كانت يومًا حاضرة الدنيا، ليرى النهاية.

المدينة العظيمة تُنتهك أمامه وهو لا يستطيع حتى أن يحمل خنجرًا يدافع به عنها. تصك أسماعه صرخات النصر المجنونة "شرقية.. شرقية"، ينظر إلى طوفان الشرقيين الهادر الذي يغتصب الطرقات والنساء في فيض عارم بين نشوة المنتصر وصراخ الضحية.

"ترى هل سيصل جيش الفلاحين في الموعد؟ ترى هل سأتمكن من الدفاع عن القصر والعاصمة والبلد؟".

*****

يدلف بحري من بوابة القصر ليخترق الحديقة الأمامية، التي جفت أشجارها وسقطت أوراقها، فبدت وكأنها أشباح مخيفة تطوف حول قصر مخيف مظلم مسكون. ثم صعد السلالم ليتجه مباشرة إلى غرفة العرش.

"كم كنت أتوق للجلوس على كرسي ولي العهد! كم حلمت! وكم تمنيت! وكم بكيت! وها أنا الآن أجلس على كرسي الملك، كرسي أوزير. وسأنام الليلة في فراش الست، وسأنام غدًا وحتى آخر العمر في فراش أوزير. هه! ومن ذا الذي يستطيع أن يُخرجني من القصر وأنا المختار، الوارث، المتصل، الرسول؟ من؟!".

كم تخيل نفسه جالسًا بجوار الست وهي شامخة باسمة تُسدي له النصح والإرشاد حتى يكون ملكًا عظيمًا وقائدًا مهيبًا! كم تخيل رسل الملوك وهي تنحني بين يديه طالبة الصداقة والعفو والرحمة! كم تخيل أن يرث أولاده المُلك من بعده! كم تخيل! وكم تمنى! وها هي أحلامه تتحقق.

يدب عكازه على الأرض، يخترق حديقة القصر الخلفية ويقف أمام البحر حيث جاء أول مرة.

- بحري.. بحري.

يلتفت بحري ناحية الصوت الواهن الذي يعرفه جيدًا، فيقابَل بطعنة نافذة في القلب من يد محترفة وخنجر مسلول.

يمسك بحري بكتف قاتلته وهو يسقط مضرجًا في دمائه منتفضًا على الأرض، فيسقط غطاء شعرها ليبدو رأسها وقد اكتسى بلون فضي مهيب.

- أمي.. أمي.

يمسك بحري بقدم الست متوسلًا، تُبعد الست قدميها، تنظر في عينيه وتقول بكل هدوء:

- أنت مش ابني.. أنت مش طرح بطني.. أنت طرح الملح.

*****

جالسة في ضوء القمر على نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه أوزير قبالة البحر، تنظر إلى تلك الأمواج المضطربة، بينما يلفحها هواء البحر المحمل برذاذ المياه الباردة.

- مليكتي.. مليكتي.

- كنت متأكدة إنك راجع.

فيرد حور:

- هه؟ إزاي؟! ده أنا نفسي ماكنتش متأكد!

فترد الست بابتسامة شاحبة:

- ابن بطني.

فيرد حور بمرارة:

- ابن بطنك اللي خذلك وساب الباطل يسُود!

- ومين قال إن الحق دايمًا بيسُود؟

- ده اللي اتعلمناه منكم وإحنا صغيرين.

- هه! واتعلمت إيه دلوقت؟

- إننا ما قدَّرناش كويس قوة الجهل.

تضحك الست بمرارة، وتقول:

- هههههه كبرت وعقلت!

- لازم ندافع عن القصر وعن البلد.

- لسه عندك أمل؟!

البداية

تصحو مع ضياء الفجر المنساب من خلف الستائر الكتانية الرقيقة، تتنفس بعمق فينساب نسيم البحر برائحته المنعشة المميزة إلى رئتيها، تفتح عينيها، يزول خدر النوم عنها فتستجمع طاقتها ليوم جديد.

تجلس على حافة السرير بجسدها القوي تنظر إلى بطنها المنتفخ وتبتسم؛ لم يبقَ على ميعاد ولادتها إلا أيام، أيام وتصل إلى العالم طفلة جديدة. كم فرحت عندما أخبرها سنوحي أنها تحمل بنتًا!

- حتكون أجمل واحدة في القصر يا مليكي العزيز.

- حتكون أجمل واحدة في الجزيرة يا مليكتي الجميلة.

كم اشتاقت لأوزير!

"يجعل أعداءك تحت رجليك وف قبضة إيديك".

هكذا دعت له وهي تودعه على بوابة القصر.

- كان نفسي أكون معاك.

- شهرين بالكتير وأرجع.

- مش حيبطلوا مهاجمتنا أبدًا؟

- هو ده طبع ملوك الرمال.. إحنا بنزرع ونقلع ونبني علشان نعيش، وهم بيسرقوا ويقتلوا علشان ياكلوا.. ح أأمن الحدود وأرجع لك.

تنظر إلى آثار الندوب التي تزين جسدها، كم حرب خاضها البنايين وكم معركة وهي تحارب بجوار أوزير كتفًا بكتف! وكم كان انتصارهم الأخير مدويًا تغنى به الشعب وهتف باسمها في الشوارع وهي عائدة من ميدان الحرب بجوار زوجها الملك!

- مليكتي..

تلتفت إلى صاحب ذلك الصوت الجميل الذي يحاكي أباه فيناديها: "مليكتي". تقبل جبهة حور وتربت على رأسه، فتتحسس شعره المفلفل الذي يشي بشقاوة صاحبه، تنظر إلى عينيه اللامعتين وهو يقول:

- مش حنروح البحر النهارده؟

يتقافز حور حولها وهي تخطو شامخة مهيبة في ردهات القصر متجهة إلى باب البحر، يمسك يدها بيده الصغيرة، ينظر إليها ويقول بوجه طفولي باسم، متسائلًا:

"هو أوزير حيرجع إمتى؟".

تلتفت إليه باسمة، فيشع المكان بالنور.

تمت

الكاتب في سطور

إيهاب قاسم

من مواليد القاهرة ١٩٦١

تدرج في العمل المصرفي وتقلد عدة مناصب داخل وخارج مصر في عدد من البنوك العالمية والمصرية.

<u>له أربع كتب منشورة</u>

- "عادل وسعاد في الحديقة " مجموعة قصصية
- "الأولة مصر، عن هوية مصر ومستقبلها "
- " ملعون" رواية
- "سيدي البلبوصي" مجموعة قصصية

<u>كتب لم تنشر بعد</u>

- "ست البنات" ديوان بالعامية المصرية
- "مفتاح الحياة" مسرحية شعرية – ميوزيكال